



روح المجتمع

غوستاف لوبون

روح الاجتماع

تأليف
غوستاف لوبيون

ترجمة
أحمد فتحي زغلول



روح الاجتماع

Psychologie du socialisme

Gustave Le Bon

غوستاف لوبيون

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

بورك هاوس، شبيت سرتيت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تلفون: ٠١٧٥٣ ٨٢٢٥٢٢ + ٤٤ (٠)

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

التقييم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠ ٦٠٥ ٩

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الفرنسية عام ١٨٩٨.

صدرت هذه الترجمة عام ١٩٢١.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة

المشاع الإبداعي: تَسْبُبُ المُصَنَّفِ، الإصدار ٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة لملكية العامة.

المحتويات

٧	مقدمة
٩	إهداء الكتاب
١١	مقدمة المؤلف
١٥	تمهيد
٢٣	الباب الأول: روح الجماعات
٢٥	١- المميزات العمومية للجماعات وقانون وحدتها الفكرية النفسي
٣١	٢- مشاعر الجماعات وأخلاقها
٤٧	٣- أفكار الجماعات وتعقلها وتخيلاتها
٥٣	٤- الصبغة الدينية التي تتكيف بها اعتقادات الجماعات
٥٧	الباب الثاني: أفكار الجماعات ومعتقداتها
٥٩	١- العوامل البعيدة في معتقدات الجماعات وأفكارها
٧٣	٢- العوامل القريبة في أفكار الجماعات
٨٣	٣- قواد الجماعات وطرقهم في الإقناع
٩٧	٤- حدود تقلب معتقدات الجماعات وأفكارها
١٠٧	الباب الثالث: أنواع الجماعات وبيان أنواعها
١٠٩	١- أنواع الجماعات
١١٢	٢- الجماعات الجارمة
١١٧	٣- العدول المخلفون أمام محاكم الجنائيات

روح الاجتماع

١٢٣

١٣١

٤- جماعات الانتخاب

٥- المجالس التأسيسية

مقدمة

بِقَلْمِ أَحْمَدْ فَتْحِي زَغْلُول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلوة والسلام على رسوله وصحابه وآلـهـ.

قرأت مؤلفاً جديداً للعالم الفرنسي المعروف الدكتور جوستاف لوبيون صاحب كتاب (تمدن العرب)، وضعيه في بيان أحوال الجماعات وما يعرض للفرد مجتمعـاً من تغير المشاعر واختلاف النظر وتبدل حكمـه فيما يحيط به، وسمـاه (روح الاجتماع). ورأيت في نقلـه إلى العربية فائدة لأهلـها فاستأذنت المؤلف في ذلك فتفضـل بالإجازة.

طلبـ منـي أن أضع مقدمة تشرح بعض الشرح موضوع الكتاب وتبيـن طرفاً مما اشتمـل عليهـ، فترددـتـ كثيرـاً ثم رأـيتـ أنـ أـتركـ الشرحـ والبيانـ للقراءـ أنفسـهمـ. وإذاـ كنتـ نقلـتـ الكتابـ إلىـ العربيةـ نقلـاً صادـقاًـ صحيـحاًـ فإنـ معانـيهـ تنـاسبـ فيـ نفسـ قارئـيهـ منـ دونـ احـتـياجـ إلىـ شـرحـ ولاـ رـجـوعـ إلىـ بيانـ.

إهداء الكتاب

إلى تيوفيل ريبو مدير المجلة الفلسفية وأستاذ علم النفس في المدرسة
الفرنساوية.

علامة مودة
جاستاف لوبيون

مقدمة المؤلف

خصصنا كتابنا السابق للكلام على الحالة النفسية للشعوب، والآن نبحث في الحالة النفسية للجماعات.

ت تكون روح كل شعب من مجموع صفات وخلال تولد في أفراده بالتوارث، لكن إذا اجتمع عدد من أولئك الأفراد للقيام بعمل من الأعمال تولدت عن اجتماعهم هذا أحوال نفسية جديدة ترتكز على أحوال الشعب، وقد تختلف عنها في كثير من الأوقات اختلافاً كبيراً.

كان للجماعات المنظمة على الدوام تأثير كبير في حياة الأمم، إلا أن هذا التأثير لم يبلغ في زمن من الأزمان مبلغه في الزمن الحاضر؛ فقد حل في أيامنا هذه تأثير الجماعات على غير قصد منها محل تأثير الأفراد المقصود لأربابه بالطبيعة، وأصبح من أخص صفات الحياة الحاضرة.

وإني أحارب البحث في موضوع الجماعات على صعوبته بالوسائل العلمية المضرة، أعني أنني أريد أن أتبع فيه نسقاً مؤسساً على قواعد العلم غير ملتفت إلى الآراء والنظريات والمذاهب الجارية مجرى الأمور المسلم بها؛ لأنني أرى أن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لاقتناص بعض شوارد الحقيقة.

ولا سيما إذا كان الموضوع مما يشغل الأفكار مثل موضوعنا.

فالعالم الذي يرمي ببحثه إلى تقرير أمر من الأمور لا يهتم بما عسى أن يصطدم مع هذا التقرير من المنافع والمصالح – قال عني أحد الكبار المفكرين وهو موسيو (جويليه دلفيلا) في كتاب نشرناه حديثاً إنني كثيراً ما خالفت في نتائج أبحاثي ما اتفق عليه الباحثون من أرباب المذاهب العصرية؛ لأنني لست تابعاً لواحد منها، وإنني لأرجو أن يكون

حظ كتابي هذا من تلك الملاحظة حظ سابقيه إذ الانضام إلى مذهب يقتضي التحيز إليه والالتزام ما فيه من الأوهام.

على أني أرى من الواجب أن أوضح للقراء السبب في أنني أستخلص من بحثي نتائج تخالف التي يظهر بادئ بدء أنها نتائجه الازمة، كتقريري مثلاً انحطاط القوة المفكرة عند الجماعات حتى التي تتالف من نوابغ أهل الفضل، وذهابي مع ذلك إلى أنه من الخطر المساس بها أو العبث بنظامها.

ذلك لأن إطالة التأمل في حوادث التاريخ دلتني دائمًا أن المجتمعات الإنسانية عویصة التركيب كالأفراد سواء بسواء، فليس في يدنا أن نحولها فجأة من حال إلى حال، نعم يتفق أن تُحدث الطبيعة تغييرًا كليًّا فجائيًّا، إلا أن ذلك لا يكون تابعًا لإرادتنا أبدًا، لذلك كان حب بعضهم للإصلاحات الكلية من أسوأ المؤثرات في الأمم مهما دلَّ النظر على حسنها؛ لأنها لا تكون مفيدة إلَّا إذا كان في الإمكان تغيير روح الأمة تغييرًا فجائيًّا، والزمان وحده هو صاحب هذا السلطان، والذي يحكم الناس مجتمعين إنما هي الأفكار والمشاعر والعادات، وكلها أمور موجودة لدينا، وحينئذٍ ليست القوانين والنظمات إلَّا صورة من صور النفس العامة التي لنا وممثلة حاجاتها، وإذا كانت القوانين والنظمات صادرة عن النفس فهي لن تستطيع تغييرها.

واعلم أنه لا يجوز فصل البحث في الأحوال الاجتماعية عن البحث في الأمم التي ظهرت تلك الأحوال فيها؛ لأنه إن صح نظرًا أن لهذه الأحوال قيمة مطلقة فمن المحقق أن قيمتها عملاً نسبية دائمًا.

لذلك ينبغي عند البحث في حال من أحوال الاجتماع أن يُنظر إليها من جهتين مختلفتين تماماً، وحينئذٍ ينجزي للباحث أن تعاليم النظر المحسن تختلف غالباً تعاليم النظر العملي، وليس من النتائج حتى نتائج الأبحاث الطبيعية ما يشذ عن هذه القاعدة إلَّا يسيراً. انظر إلى مكعب أو دائرة تجدها من حيث الحقيقة المطلقة صوراً حسابية ثابتة لها صيغ تضبطها ضبطاً دقيقاً، لكنها قد تحضر أمام العين بصورة مختلفة، فقد ترى المكعب هرماً أو مربعاً، وقد ترى الدائرة قطعاً ناقصاً أو خطأً مستقيماً. ويجب الاهتمام بهذه الصور الصورية أكثر من الاهتمام بتلك الصور الحقيقة؛ لأنها هي التي تتراءى أمامنا وهي التي يمكن للرسم أو للة التصوير أن تنقلها لنا، ومن هنا جاز القول بأن الصوري حقيقي أكثر من الحقيقي في بعض الأحوال لأن تشخيص الأشكال الهندسية بصورها الحسابية المنضبطة عبارة عن تشويه طبيعتها وجعلها تخفي على الناظرين،

فلو فرضنا عالماً لا يسعهم إلا رسم الأشياء أو نقلها بآلية التصوير من دون أن يتمكنوا من لسها لتعسر عليهم استحضار صورتها الحقيقية في أذهانهم، على أن معرفة تلك الصورة الحقيقية من العدد القليل – أعني العلماء – لا يفيد إلا فائدة صغيرة جدًا.

إذن وجب على الحكيم الذي يبحث في الأحوال الاجتماعية أن لا يغفل عما لهذه الأحوال من القيمة العملية بجانب قيمتها العلمية، وأن الأولى هي التي لها شيء من الأهمية في تطور المدنيات، وملحوظة ذلك تقتضي الحيطة والحذر من الوقوف عند ما قد يسوق إليه الاستنتاج المنطقي بادئ بدءه.

وهناك أسباب أخرى تدعو إلى هذا الحذر: منها أن الأحوال الاجتماعية عویصة مشتبكة يتعدر على الباحث أن يحيط بها كلها وأن يتعرف ما لها من التأثير وما بينها من التفاعل، ومنها أن وراء الحوادث الظاهرة مؤثرات خافية كثيرة جدًا، إذ يظهر أن الأولى ليست إلا نتيجة عمل عظيم يقع على غير علم منا، وهو في الغالب فوق بحثنا، فمثل الحوادث الظاهرة مثل الأمواج المتلاطمة التي تُترجم فوق سطح البحر عما هو واقع في جوفه من الاضطرابات التي خفيت عنا. ونحن إذا نظرنا إلى الجماعات نراها تأتي من الأعمال بما يدل على انحطاط مداركها انحطاطاً كلياً، غير أن لها أعمالاً أخرى يظهر أنها منقادة فيها بقوة خفية سماها الأقدمون قدرًا أو طبيعة أو يدًا صمدانية، وسمماها أهل هذا الزمان (صوت من في القبور)، وعلى كل حال لا يسعنا أن ننكر ما لها من القوة وإن جهلنا كنهها، وكثيراً ما يظهر أن في باطن الأمم قوى كامنة ترشدها وتهديها أنك لا تجد شيئاً أكثر تعقيداً ولا أدق ترتيباً وأجمل خلقاً من اللغة، وما مصدر هذا الشيء الغريب في نظامه العجيب في أسلوبه إلا روح الجماعات تلك الروح اللاشاعرة. وأعلم الجامع العلمية وأرقى النحوين إنما يجهدون النفس في تدوين قواعد اللغات، وهم لا شك عاجزون عن خلقها، كذلك لسنا على يقين من أن الأفكار السامية التي يحدثها النابغون من فطاحل القوم إنما هي عملهم خاصة، نعم هم الذين أوجدوها، ولكن لا ينبغي أن ننسى أن ذرات التراب التي تراكمت فصارت منبتاً لتلك الأفكار إنما كونتها روح الجماعات التي وجد أولئك النابغون فيها.

تتجدد الجماعات دائياً عن الشعور بعملها، وقد يكون هذا هو السر في قوتها على أنها نشاهد في الطبيعة أن الذوات الخاضعة لمجرد الإلهام تأتي بأعمال دقيقة يحار الإنسان في معرفة جليل صنعها، ذلك أن العقل جديد في الوجود الإنساني وفيه نقص كبير، فلا قدرة لنا به على معرفة قوانين الأفعال اللاشعورية، فما بالك إن حاولنا وضع غيرها في

مكانها أن نصيب اللاشعور في جميع أعمال الإنسان عظيم وافر ونصيب العقل فيها صغير للغاية، والأول يعمل وبؤثر كفوة لا تزال معرفتها غائبة عنا.

وعليه إذا أردنا أن نقف عند الحدود الضيقة المأمونة في معرفة الأشياء من طريق العقل ولا نهيم في أودية التخمينات المبهمة والفرضيات العقيمة لزمننا، أن نقتصر على تقرير الحوادث التي تقع تحت حواسنا، وكل استنتاج مبني على هذه المشاهدات بعد ذلك يكون تسرعاً في غالب الأحيان؛ لأنه يوجد خلف الحوادث التي نراها جيداً حوادث لا نراها رؤيا ناقصة، وقد يكون وراء هذه غيرها مما لا نراه أصلاً.

تمهيد

زمن الجموع

يحال الناظر في أحوال هذا الكون أن الانقلابات العظيمة التي تتقدم تطور المدينة في الأمم مثل سقوط الدولة الرومانية وقيام الدولة العربية ناشئة عن تطور سياسي عظيم كفارة الأمم بعضها على بعض أو سقوط الأسر الحاكمة وهكذا، لكن بعد إنعام النظر في هذه الحوادث يتبيّن أن وراء أسبابها الظاهرة في الغالب سبباً حقيقياً هو التغيير الكلي في أفكار تلك الأمم، فليست التقلبات السياسية الحقيقة الكبرى هي التي تدهش الباحثين بعظمها وعنفها، وإنما الانقلاب الصحيح الجدير بالاعتبار الذي يؤدي إلى تغيير حال الأمم المدينة يحصل في الأفكار والتصورات، والمعتقدات والحوادث العظيمة الخالدة في بطون التواريخ ليست إلا آثاراً ظاهرة للتغيير خفي في أفكار الناس، وإذا كانت تلك الانقلابات العظيمة نادرة الحدوث، فذلك راجع إلى أن أشد أخلاق الأمم رسوحاً عندها هو التراث الفكري الذي ورثته عن آبائها.

وأخرج الأزمان في تطور الفكر الإنساني زماننا هذا، ولهذا التطور عاملان أصليان:
الأول: تهدم المعتقدات الدينية والسياسية والاجتماعية التي تتكون منها عناصر المدينة الحاضرة.

والثاني: قيام أحوال جديدة ونشوء أفكار جديدة في الحياة تولدت كلها من الاكتشافات العصرية العلمية والصناعية.

ولما كان تهدم الأفكار القديمة لم يتم فلم تزل قوتها، وكانت الأفكار التي ستحل محلها في دور تكونها؛ كان الزمن الحاضر زمن تحول وفوضى.

ومن المتعسر أن نتken بما قد يتولد يوماً من الأيام من هذا الوقت المشوش، كما أننا لا نعرف حتى الآن على أي الأفكار الأساسية والمبادئ الأولية يقوم بناء الأمم التي تخلفنا. ولكن الذي نراه منذ الساعة أنه سيكون أمام تلك الأمم قوة عظيمة لا بد لها من الاعتداد بها؛ لأنها أكبر قوة وجدت أريد بها قوة الجماعات، تلك القوة التي قامت حتى الآن وحدها على أطلال الأفكار البالية التي كان الناس يعتقدونها حقائق وماتت وعاشت بعد أن حطمت الثوراتُ المختلفة كل سلطة كانت تحكم في الناس، وهي القوة التي يظهر لنا أن مصيرها ابتلاء ما عدتها في القريب العاجل. ألا ترى أن معتقداتنا القديمة أخذت تهتز من وهن أساسها، وأن أساطين المجتمعات القديمة تتداعى وتتحطم، وأن سلطة الجماعات هي وحدها التي لا يهددها طارئ، بل هي تعظم وتنمو، وعليه فالدور الذي نحن قادمون عليه هو دور الجماعات لا محالة.

كان المؤثر في الحوادث التاريخية منذ قرن واحد هو السياسة التقليدية للدول ومنازعات ملوكها، ولم يكن لرأي الجموع وزن يُذكر، بل لم يكن له قيمة أصلًا في الغالب. أما الآن فالسياسة التقليدية هي التي أصبحت لا وزن لها ولا أثر للمنازعات الشخصية بين الملوك، بل صارت الغلبة لصوت الجماعات، فهو الذي يرسم للملوك خطتهم وهو الذي يجتهد الملوك في الإصغاء إليه، وأمسى مصير الأمم راجعاً إلى ما تحمله روح تلك الجماعات لا إلى ما يراه أصحاب مشورة الأمراء.

فجلوس طبقات الأمم على عرش السياسة، يعني تطور تلك الطبقات حتى صارت قادة لدولها، هو من أخص مميزات زمن التحول الذي نحن فيه، وليس حق الانتخاب العام هو الدليل الصحيح على هذا التطور؛ لأن هذا الحق بقي ضعيفاً الآخر زماناً طويلاً، وكان في مبدأ أمره سهل القياد، وإنما تولدت سلطة الجماعات رويداً رويداً بانتشار بعض الأفكار التي رسخت في الأذهان أولاً وبتدرج الأفراد في تكوين الجماعات للوصول إلى تحقيق تلك النظريات ثانياً. فالاجتماع هو الذي ولد في الجماعات قوة إدراك منافعها، ومع كونه ليس إدراكاً تاماً فهو ثابت متين، والمجتمع هو الذي جعلها تشعر بما لها من القوة والسلطان، وهذا أصل تأسيس الجمعيات (الستديكارات) التي تخضع أمامها السلطات واحدة بعد الأخرى، وغرف التجارة (البورصات) التي تطمح إلى السيطرة على العمل وأجور العمال، وإن خالفت في حكمها قواعد الاقتصاد وأصول تدبير الثروة العامة.

والجماعات هي التي تبعث اليوم إلى المجالس النيابية لدى الحكومة بوكلاه تجردهم من كل حركة شخصية وكل استقلال، فلا يكون لهم من الرأي إلا ما رأته اللجان التي انتخبتهم.

أخذت طلبات الجماعات الآن تترقى في مراتب الوضوح، وهي لا ترمي إلى أقل من قلب الهيئة الاجتماعية الحاضرة رأساً على عقب لترجع بها إلى حالة الاشتراك الأولى التي كانت عليها العشائر قبل بزوغ شمس المدينة. تطلب الجماعات تحديد ساعات العمل ونزع ملكية المعادن والسكك الحديدية والمعامل والمصانع والأطيان، وتطلب توزيع الثمرات بين جميع الناس على السواء وإحلال الطبقات الوضعية محل الطبقات الرفيعة ... وغير ذلك. الجماعات أقدر على العمل منها على التفكير، وقد أصبحت بنظمها الحاضر ذات قوة كبرى، وعما قريب يكون للمذاهب التي نراها اليوم في دور التكون من السلطان العظيم على الأفكار ما للمذاهب التي رسخت أصولها في الاعتقادات، أعني سلطاناً مستبداً لا تأثير فوق تأثيره، فلا تعود تحتمل البحث أو الجدال، وحينئذ يقوم حق الجماعات المقدس مقام حق الملوك الأقدسين.

ولقد استولى الهلع على قلوب الكُتاب الذين لهم منزلة لدى الطبقات الوسطى في الأمم، وهم الذين يمثلون أكثر من غيرهم أفكارها الضيقة ونظرها القصير ويأسها غير المبني على التأمل الصحيح، وحب الذات البالغ غايتها، فخشوا عاقبة ذلك السلطان الجديد الذي أخذ ينمو ويعظم، ومالوا إلى مقاومة ما استحوذ على الأفكار من الاضطراب، فولوا وجوههم قبل الكنيسة مستصرخين بسلطانها الأدبي وتأثيرها الروحي بعد أن بالغوا في احتقارها وغالوا في إهمال جانبيها ونادوا بإفلاس العلم في طريق تهذيب النفوس، فهم يرجعون من روما تائبين منيبين يدعوننا إلى الرجوع للتمسك بحقائق الوحي والتنزيل، وفات أولئك الم الدينين من جديد أن الوقت قد فات، وإذا صر أن الفيض الإلهي أخذ من نفوسهم، فإنه لن ينال من نفوس جماعات لا تعتد كثيراً بما يقلق ضمائر أولئك الزهاد، فلم تعد ترغب في الأرباب التي رغبوا هم عنها بالأمس وكان لهم نصيب في تحطيمها، وليس في طاقة البشر ولا مما تتعلق به القدرة الإلهية جعل مياه الأنهر تصب في ينابيعها. ما أفلس العلم ولا ذنب له في فوضى الأفكار التي انتشرت في هذا الزمان ولا في سلطة الجماعات التي تنمو وسط تلك الفوضى، إنما العلم وعدنا كشف الحقيقة أو على الأقل بيان النسب التي تربط الأمور بعضها ببعض مما تقدر على إدراكه، لكنه ما وعدنا السلام ولا السعادة أبداً. والعلم جماد بالنسبة لمشاعرنا وأصم لا يصل إليه صراخنا، وإنما نحن

الذين يجب عليهم أن يحملوا أنفسهم على الاتفاق معه، إذ لا شيء يقدر أن يعيده لنا تلك الأوهام التي فرَّت أمام نوره.

توجد علامات عامة ظاهرة في جميع الأمم تدل على سرعة نمو سلطان الجماعات نمواً لا رجاء في وقوفه آجلاً، ونحن خاضعون لحكمه حاملون كل ما أنتج بالقهر عنا، فكل قول فيه باطل لافائدة منه، ومن الجائز أن تولي الجماعات قياد الأمم يكون خاتمة أدوار مدنية الغرب، فيرجع إلى الانغمام في أودية الفوضى التي يخال أنه لا بد لكل أمة من اجتيازها قبل الوصول إلى دور الحضارة والرقى، ولكن أين السبيل إلى منع ما هو كائن.

ينحصر الأثر الواضح لعمل الجماعات حتى الآن في هدم صروح المدنية، فالتأريخ يدلنا على أنه كلما وهنت القوى الأدبية التي يقوم عليها بناء تقدم أمم من الأمم كانت خاتمة الانحلال على يد تلك الجماعات الوحشية اللاشعورية التي سميت بحق متبربة، أما الذين أقاموا صروح المدنية وشيدوا أركان الحضارة فهم نفر امتازوا بسمو المدارك وبعد النظر، ولكننا لم نر حتى الآن للجماعات أثراً مثل هذا، فهي إنما تقدر على الهدم والتحطيم وزمان حكمها زمان بربيرية على الدوام؛ لأن المدنية لا تقوم إلا على مبادئ مقررة ونظام ثابت وانتقال من العمل بمقتضى الغريزة إلى الاهتمام بنور العقل والبصر بالمستقبل، ومرتبة راقية من العلم والتهذيب، وتلك وسائل برهنت الجماعات على أنها غير أهل لتحقيقها إذا تركت شأنها. ومثل الجماعات في قوتها الهادمة مثل المكروبات التي تجعل بانحلال الأجسام الضعيفة وتساعد على تحلل الأجساد الميتة، فإذا نخرت عظام مدنية تولت الجماعات نقض بنائها، هناك يظهر شأنها الأول ويخيل لنا بأدئ بدء أن العامل في حوادث التاريخ هو كثرة العدد.

إننا لنخشى أن يكون هذا أيضاً مصير مدنينا، لكن ذلك الذي لا نعرف منه شيئاً حتى الآن.

وكيفما كان الحال فلا مندوحة لنا عن الخضوع لحكم الجماعات؛ لأن أيدياً طائشة أزالت بالتدريج جميع الحواجز التي كانت تمنع من طغيانها.

كثر الكلام على الجماعات ونحن لا نعرف من حالها إلا يسيراً؛ لأن المشغلين بعلوم النفس عاشوا بمعزل عنها، فجهلوا أمرها على الدوام، وإنما اشتغلوا بها في الأيام الأخيرة من جهة ما قد ترتكب من الجرائم والآثام. نعم توجد جماعات شريرة، إلا أن هناك أيضاً جماعات فاضلة وجماعات ذات شجاعة ... وهكذا، فالنظر إليها من حيث الشر وحده

نظر للشيء من جهة واحدة، ولا يتصل الباحث لمعرفة إدراك الجماعات ببحثه في الجرائم التي قد تصدر عنها، كما أنه لا يتوصل إلى معرفة إدراك الفرد بالبحث في عيوبه خاصة. ومع ذلك فإن الذين سادوا على العالم وساسوا الأمم والممالك من شرعوا الأديان وأسسوا الدول ورسّل المذاهب كلها وأقطاب السياسة حتى رؤساء العشائر الصغيرة، كانوا دائمًا من علماء النفس وهم لا يشعرون، فكانوا يعرفون روح الجماعات معرفة فطرية، وكانت تلك المعرفة صادقة في أغلب الأحيان، ومعرفتهم بذلك جيداً هي التي مكنتهمن من السيادة عليها. كان نابليون واسع الخبرة بأحوال الجماعات النفسية في البلاد التي انبسطت يده عليها، ولكنه جهل غالباً روح الجماعات في شعوب آخر، كذلك كان شأن أكبر مستشاريه فإنهما أيضاً لم يفهُما حقيقة حال الجماعات الأجنبية عن أمتهم، فقد كتب له (تايلران) أن إسبانيا تلاقي جيوشه لقاء المنجدين، فلما زحفت إليهم استقبلهم كما تستقبل الوحوش الكاسرة، ولو أنه كان على شيء من العلم بما ورثت تلك الأمة من الأميال سهل عليه معرفة هذا الاستقبال. ذلك هو السبب في أن نابليون قام في بلاد الإسبان وفي بلاد الروسيا على الأخص بحروب كانت عاقبتها التعجيز بسقوطه.

معرفة روح الجماعات أصبحت اليوم آخر ملجاً يأوي إليه السياسي العظيم، لا لأجل أن يحكمها، فقد صار ذلك الآن صعباً كثيراً، بل ليخفف عنه شدة تأثيرها.

وإذا أردنا أن نعرف ضعف تأثير القوانين والنظمات في الجماعات، فإنما السبيل إلى ذلك تدقيق البحث لمعرفة روحها والوقوف على أحوالها النفسية، وبذلك نفقه أيضًا أنه لا قدرة لها على تكوين رأي أو التفكير في شيء خارج عن الدائرة التي رسمت لها، وأنها لا تقاد بقواعد العدل النظرية، بل بالبحث عما من شأنه التأثير فيها واحتلابيها. فلو أرادوا زعزع فرض ضريبة جديدة وجب عليه أن لا يختار التي هي أقرب للعدل من حيث قواعد الاقتصاد في ذاتها، فربما كان أبعدها عن العدل أكثرها قبولاً بالفعل عند الناس، فإن كانت هذه الأخيرة أيضًا أقل وضوحاً وأخف حملًا في الظاهر، كان ذلك أدعى إلى قبولها؛ لهذا كانت الضريبة المقررة مقبولة لدى الجمهور فيما كانت باهظة لأنهم يؤدونها تدريجيًا على أقسام صغيرة عند شراء حاجاتهم اليومية، فهي لا تضيق عليهم فيما ألفوه ولا تؤثر فيهم لذلك تأثيراً غير محمود، فإذا بُدلت هذه الضريبة بضريبة الإيراد أو الأجر ب بحيث يدفعونها مرة واحدة على أصوات الشكوى من كل جانب، ولو كانت هذه الضريبة أخف من تلك عشر مرات ذلك لأن مبلغًا ذا قيمة ظاهرة حل محل فلس يُدفع بالتدريج يوماً بعد يوم ووجب أداوه دفعه واحدة، وفي ذلك من موجبات الضجر ما لا يخفى، ولو أنهم

اقتتصدوه درهماً إلى درهم لَبَان لهم ضعفه وما شعروا بثقله، لكن هذه وسيلة اقتصادية تقتضي شيئاً من التبصر، وذلك ما لا تقدر الجماعات عليه.

المثال الذي قدمناه من أسهل الأمثل معرفة صحته ميسورة للكافة، وهو لم يغب عن متفرس مثل نابليون، لكن المشرعين الذين جهلوا حياة الجماعات لا يدركونه؛ لأن التجارب لما تعلمهم أن الناس لا يسيرون أبداً على مقتضى قواعد العقل وحده.

ومن السهل الإكثار من الأمثلة التي ينطبق عليها علم روح الاجتماع، فمعرفة ذلك العلم توضح وضوحاً تماماً عدداً كبيراً من الحوادث التاريخية والاجتماعية يستحيل إدراك حقيقتها بدونه، وسبعين في حينه أن السبب في كون أكبر مؤرخي الأعصر الحاضرة – وأعني به المسو (تاين) – لم يفقه تماماً بعض حوادث الثورة الفرنسية، إنما هو لأنه لم يشتغل بالبحث في روح الجماعات، بل استرشد في الكلام على هذا القسم العويص من التاريخ بطريقة الطبيعيين التي هي تصوير الحوادث ووضعها، غير أن القوى الأدبية ليست مندرجة فيما يبحث فيه الطبيعيون إلا شذواناً مع أن تلك القوى هي التي تقوم عليها دعائم التاريخ.

معرفة أحوال الجماعات النفسية ضرورية سواء أردنا من ذلك جانبها العملي أو الرغبة في مجرد الوقوف على ما هو كائن، فمن المفيد استكناه أسباب الأفعال التي تصدر عن الإنسان، كما أنه من المفيد معرفة حقيقة المعدن أو الغراس.

سيكون كلامنا في روح الاجتماع موجزاً بمعنى أنه سيكون تلخيصاً لمباحثنا فلا يطلبن القارئ منه إلا بعض أفكار ترشد إلى غيرها، ولغيرنا أن يوغل في الموضوع، أما نحن فإنما نخططه على أرض لا تزال عذراء.^١

هوماش

(١) قلت: إن القليل من العلماء الذين بحثوا في علم روح الجماعات قصرت بحثهم على الجهة الجنائية منها، أما أنا فلا أخص لهذه الجهة إلا فصلاً صغيراً من هذا الكتاب؛ لذلك أرجع القراء إلى مباحث موسيو (تارد) ورسالة موسيو (سيجيل) التي سماها (الجماعات الجارمة)، وتشتمل تلك الرسالة بجانب مباحث مؤلفها الخاصة به على ذكر مشاهدات جمعها من مؤلفات غيره مما تفيد مطالعته علماء روح الاجتماع، على أن ما استخلصته أنا من حيث قوى الجماعات العقلية وقابليتها للشر والجريمة تختلف ما ذهب إليه هذان العمالان على خط مستقيم. وسأنشر عما قريب كتاباً أتكلم فيه على روح الاشتراكية،

وهنالك تتبين أهمية الكثير من قواعد روح الجماعات، على أن تلك القواعد تنطبق على موضوعات آخر تخالف الموضوع الذي نحن بصدده. ومن تلك التطبيقات ما شاهدته موسيو (جيفيت) مدير المتحف الموسيقي بمدينة بروكسل في رسالة كتبها على الموسيقى وسماتها اسمًا جديراً بسماه وهو (فن الجماعات)، وبعث إلى بنسخة منها مع كتاب يقول فيه: إن كتابيك هما اللذان ساعداني على مسألة كنت أرى قبل الآن حلها مستحيلًا، وهي قابلية الجماعات قابلية عجيبة لذوق قطعة موسيقية، إذا قام بتمثيلها منفذون يقودهم رئيس ذو حماسة قوية، سواء كانت تلك القطعة جديدة أو قديمة، وطنية أو أجنبية، بسيطة أو مركبة. وقد ذكر موسيو جيفيرت في رسالته أن القطعة الموسيقية قد لا يذوقها أشهر الموسيقيين الذين يطالعونها بسکينة في كسر بيتهم، ويدركها لأول وهلة سامعون ليس لهم أدنى إلمام بقواعد الفن وأصوله.

الباب الأول

روح الجماعات

الفصل الأول

المميزات العمومية للجماعات وقانون وحدتها الفكرية النفسياني

الجماعات بالمعنى المتعارف: اللفيف من القوم مطلقاً وإن اختلفوا جنساً وحربة، ذكوراً كانوا أو إناثاً، وعلى أي نحو اجتمعوا. أما في علم النفس، فلها معنى آخر، ففي بعض الظروف يتولد في الجمع من الناس صفات تخالف كثيراً صفات الأفراد المؤلف هو منها، حيث تخفي الذات الشاعرة وتتوجه مشاعر جميع الأفراد نحو صوب واحد، فتتولد من ذلك روح عامة وقربية بالضرورة إلا أنها ذات صفات مميزة واضحة تمام الوضوح، وحينئذ يصير ذلك الجمع لفيما مخصوصاً لم أجد لتسميتها كلمة أليق من لفظ الجماعة المنظمة أو الجماعة النفسية، فكأن ذلك اللفيف ذات واحدة، وبذلك يصير خاصعاً لناموس الوحدة الفكرية الذي تخضع الجماعات لحكمه.

ووضح مما تقدم أن مجرد اجتماع أفراد كثرين اتفاقاً لا يكسبهم صفة الجماعة المنظمة، وأن ألف نفس اجتمعوا عرضاً في رحبة واسعة لغير قصد معين لا يكونون جماعة عند علماء النفس، بل لا بد في توفر صفات الجماعة من تأثير مؤثرات مخصوصة سنوضحها فيما بعد.

ثم إن اختفاء الذات الشاعرة واتجاه المشاعر والأفكار نحو غرض واحد، وهما الصفتان الأوليان للجماعة إبان انتظامها، لا تستلزمان دائمًا وجود أشخاص عديدين في مكان واحد، بل قد تتتوفر صفة الجماعة النفسية لآلاف من الناس وهم متفرقون، إذا تأثرت نفوسهم تأثراً شديداً بحادث جلل، كفاجعة عامة في الأمة، فإن اجتمعوا اتفاقاً وهم تحت ذلك التأثير لبست أعمالهم ثوب أعمال الجماعات ل ساعتها، وقد تتالف الجماعة من بضعة عشر فرداً، وقد لا تتتوفر هذه الصفة لمئات اجتماعوا اتفاقاً، وقد تصير الأمة كلها جماعة من دون أن يكون هناك اجتماع ظاهر إذا وقع عليها كلها أثر واحد.

ومتى تكونت الجماعة النفسية عرض لها صفات عامة مؤقتة لكنها ظاهرة يمكن تحديدها، ويقوم بجانب تلك الصفات العامة صفات خاصة تختلف باختلاف العناصر التي تتتألف منها الجماعة، وربما أثرت هذه الصفات فيما لها من القوة المدركة، وعلى هذا يمكن تقسيم الجماعات النفسية إلى أنواع، وسنوضح عند الكلام على هذا التقسيم أنه يوجد للجماعات التي تتتألف من عناصر مختلفة والجماعة التي تتتألف من عناصر متشابهة (كالعشيرة والطبة والطائفة) صفاتٌ عامة جامدة، وأن لكل قسم مميزات خاصة به.

وقبل الكلام على أنواع الجماعات ينبغي أن نأتي على بيان الصفات العامة لنكون حذينا حذو الطبيعيين الذين يذكرون أولاً الخواص التي تصدق على جميع أفراد كل فصيلة قبل أن يشرحوا الخواص التي تمتاز بها الأجناس والأنواع المندرجة في تلك الفصيلة.

ليس من السهل شرح حقيقة روح الجماعات شرحاً دقيقاً؛ لأن نظامها يختلف أولاً باختلاف الشعب وتركيب الجمعيات، وثانياً باختلاف طبيعة المؤثرات التي تقع على الجمعيات المذكورة. غير أن هذه الصعوبة حاصلة عند البحث في نفس الفرد الواحد؛ لأن الفرد لا يحيي حياة واحدة لا تتغير إلا في القصص والروايات، وغاية ما في الأمر أن وحدة البيئة تحدث وحدة الخلق في الظاهر ليس إلا، وقد بيّنت في غير هذا المكان أن في جميع القوى المدركة استعداداً لتوليد أخلاق جديدة تظهر إذا تغيرت البيئة تغييراً فجائياً، هكذا رأينا بين رجال الثورة الفرنساوية أفراداً كانوا كاللحوش الضاربة، وقد كانوا في زمن السلم قضاء من ذوي الفضل أو موثقين أولى سكينة هادئين، فلما سكنت العاصفة عادوا إلى سكينتهم، وكان لتابوليون منهم أعون مخلصون.

ولما كان لا يتيسر لنا أن نشرح هنا نظام الجماعات على اختلاف درجاته وجب أن يكون بحثنا في التي كمل نظامها، فنعرف حينئذ ما قد يؤول إليه أمر الجماعات لا ما هي عليه دائماً، خصوصاً إذا لوحظ أن الجماعة التي وصل نظامها إلى حد الكمال الممكن هي التي تحدث لها صفات خاصة جديدة ترتكز على ما في مجموعها من الصفات الثابتة التي لعامة الشعب، وهي التي تتحدد فيها الإرادات، وتتجه المشاعر نحو مقصد واحد، وهي التي يظهر فيها ذلك الناموس الذي سميت به فيما تقدم ناموس الوحدة الفكرية للجماعات.

ومن الصفات النفسية ما تشتراك فيه الجماعة مع الأفراد، ومنها ما هو خاص بها دون الفرد، وسنبدأ بالكلام على هذه الصفات الخاصة لنبين ما لها من الأهمية.

أهم ما تمتاز به الجماعة وجود روح عامة تجعل جميع أفرادها يشعرون ويفكرن ويعلمون بكيفية تخالف تمام المخالفة الكيفية التي يشعر ويفكر ويعمل بها كل واحد منهم على انفراده، وذلك كيما كان أولئك الأفراد، وكيفما تباينوا أو اتفقوا في أحوال معيشتهم وفي أعمالهم اليومية، وفي أخلاقهم ومداركهم، وعلة ذلك مجرد انضمامهم إلى بعضهم وصيورتهم جماعة واحدة. ومن الأفكار والمشاعر ما لا يتولد أو يتحول فيخرج من عالم القوة إلى عالم الفعل إلا عند الفرد في الجماعة، فالجماعة ذات عارضة (مؤقتة) متألقة من عناصر مختلفة اتصل بعضها ببعض إلى أجل، كخليلات الجسم الحي التي ولدت باتصالها ذاتاً أخرى لها صفات غير صفات كل خلية منها، ورغمًاً عما ذهب إليه هربرت سبنسر ذلك العالم الحكيم المدقق مما ندهش له، نقول: إنه لا يوجد بين العناصر التي تتكون منها الجماعة حد وسط، وإنما الذي يوجد هو مزيج وتولد صفات جديدة، كما يحدث ذلك في الجوادر الكيميائية، ألا ترى أنك إذا جمعت جوهرين مثل القواعد والأحماس تولد عن اجتماعهما جسم جديد ذو خواص تختلف تماماً خواص كل واحد من الجوهرين.

لذلك كان من السهل معرفة الفرق بين الفرد في الجماعة وبين الفرد وحيداً، غير أنه يصعب الوقوف على السبب في ذلك. ولكي يقر بنا البحث من معرفة هذه الأساليب على وجه ما ينبغي أن لا نغفل عن القاعدة الآتية التي شاهدتها علماء النفس في العصر الحاضر، وهي أن للحوادث اللاحشوورية في حركة الإدراك الشأن الأول، كما أنها كذلك في الحياة الجسمانية، وأن حياة النفس الشاعرة ليست إلا شيئاً يسيراً بجانب حياتها اللاحشوورية، حتى إن أدق الباحثين تأملاً وأبعد المحققين نظراً لا يسعه أن يقف إلا على قليل من البواطن اللاحشوورية التي تدفعه إلى الحركة، بل إن حركاتنا المقصودة لنا أو الشعورية مسببة عن مجموعة أساليب لاحشووري متولدة على الأخص من تأثير الوراثة فيها، وهذا المجموع يشتمل على بقايا الآباء والجدود التي لا يحصيها العد، ومنها تتألف روح الشعب أو الأمة التي نحن منها، فوراء أساليب أعمالنا التي نقصدها أساليب خفية لا إرادة لنا فيها، ووراء هذه أساليب كثيرة آخر أشد خفاء وأكثر غموضاً بدليل أننا لا نفقه شيئاً منها، وجل أفعالنا اليومية صادر عن أساليب خفية تفوتنا معرفتها.

يتشبه أفراد الشعب بالعناصر اللاحشوورية التي تكون روحه العامة، وهم إنما يفترن بالخواص الشعورية التي هي نتيجة التربية، وبالأشخاص نتيجة وراثة استثنائية، وأشد الناس افتراقاً من حيث مداركهم يتشاربون بالوجدانات والشهوات والمشاعر،

وأعظم الرجال لا يتفاوتون عن العامة في الأمور التي مرجعها الشعور؛ كالدين والسياسة والأداب والمليل والنفور، وهكذا، إلا نادراً، فقد يكون بين الرياضي الكبير وبين صانع حذائه بُعد ما بين السماء والأرض من حيث العقل والذكاء، ولكن الفرق بينهما في الطياع معهود في الغالب أو هو ضعيف للغاية.

هذه الصفات العامة في الطياع المحكومة باللاشعورية الموجودة في جميع أفراد كل أمة بدرجة واحدة تقريباً هي التي لها المقام الأول في حركة الجماعات، فتختفي مقدرة الأفراد العقلية في روح الجماعة وتتنزوي بذلك شخصيتهم، وبعبارة أخرى تتبع الخواص المتشابهة تلك الخواص المتغيرة وتسود الصفات اللاشعورية.

ولكون الجماعات إنما تعمل متأثرة بتلك الصفات الاعتيادية يتبيّن لنا السر في عدم قدرتها أبداً على الإتيان بأعمال تقتضي فكراً عالياً وعقلاً رجيناً، حتى إنك لا تجد فرقاً كبيراً فيما يقرره جمع من نخبة الرجال ذوي الكفاءات المختلفة وما يقرره جمُع كله من البلاء في موضوع المنفعة العامة؛ لأنهم لا يمكنهم أن يشتركون في هذا العمل إلا بالصفات العادية التي هي لكل الناس، فالذي يغلب في الجماعات إنما هي البلاهة لا الفطنة، وما كل الناس بأعقل من (فولتير) كما يقولون غالباً، بل الواقع أن فولتير أعلم من كل الناس إذا أردنا بكل الناس الجماعات.

لكن لو كان كل فرد في الجماعات لا يأتي لها إلا بما اشتراك فيه من الصفات مع غيره وكانت النتيجة حداً وسطاً فقط، وما تولدت خصال جديدة كما قدمنا، فمن أين إذن تأتي تلك الخصال. هذا الذي نبحث فيه الآن.

الأسباب التي تولد هذه الصفات الخاصة في الجماعات دون الأفراد كثيرة. الأولى أن الفرد يكتسب من وجوده وسط الجمع قوة كبيرة تشجعه على الاسترسال في أمياله مما كان يحجم عنه منفرداً بالضرورة، ثم هو لا يكتب جماح نفسه لأن الجماعة لا تسأل عن أفعالها لشيوعها بين جميع الأفراد، فلا يشعر الواحد منهم بما قد يجره العمل عليه من التبعية، وهذا الشعور هو الزاجر للنفوس عما لا ينبغي.

السبب الثاني من الأسباب التي تولد في الجماعات صفات جديدة وتوحد وجهتها هو العدوى، والعدوى من الظواهر التي يسهل بيانها، ولكنها ليست مما يتيسر تعليمه، وهي من فصيلة الحوادث المغناطيسية التي سيأتي الكلام عليها، وكل شعور في الجماعة وكل عمل يصدر عنها فهو مُعدٍ إلى حد أن الفرد يضحي مصلحته الذاتية لمصلحة الجماعة، وهذه قابلية مخالفة جداً لطبيعة الإنسان، فهو لا يقدر عليها خارج الجماعة إلا نادراً.

السبب الثالث وهو أهمها مما يولد في أفراد الجماعة صفات خاصة مبادنة تمام المبادنة لصفات كل واحد منهم على انفراده، هو قابلية التأثير التي هي أصل في العدوى السابق الكلام عليها. ولسهولة إدراك هذه الظاهرة يلزمـنا أن نذكر هنا بعض اكتشافات جديدة دلّ عليها علم وظائف الأعضاء، منها أنه أصبح من الواضح إمكان وضع الشخص بطرق شتى في حالة يفقد فيها ذاته الشاعرة تماماً فينقاد إلى جميع ما يشير به عليه ذلك الذي أذهبها عنه، ويرتكب أشد الأفعال مبادنة لخلقه وعادته، وقد دل النظر الدقيق في أحوال الجماعات أن الفرد متى أمضى زمناً بين جماعة تعمل لا يلبث أن يصير في حالة خاصة تقرب كثيراً من حالة الشخص النائم نوماً مغناطيسياً ينادي المنوم، وذلك بتأثير السيالات التي تصل إليه من الجماعة، أو بأسباب آخر مما لم نقف عليه بعد، وحالة الشخص النائم هي تعطيل وظيفة المخ وصيورته هو مسخراً لحركات مجموعة العصبي اللاشعورية التي يسيرها المنوم كيف يشاء، هنالك تتطفئ الذات الشاعرة تماماً، وتفقد الإرادة ويغيب التمييز وتتجه جميع المشاعر والأفكار نحو الغرض الذي رسمه المنوم.

تلك أيضًا على التقرير حال الفرد في الجماعة، فإنه فيها لا يبقى ذا شعور بأفعاله، وبينما هو يعدم بعض ملكاته تشتـد فيه قوة البعض الآخر اشتـداداً كبيراً، كما هو الحال بالنسبة للشخص النائم، فتراه عند الإشارة يندفع إلى الفعل المشار إليه اندفاعاً لا قبل له بمقاومته، وهذا الاندفاع هو عند الفرد من الجماعة أشد بكثير منه عند الشخص النائم؛ لأن التأثير حاصل للجميع فيشتـد بالتفاعل بينهم، والذين قويت شخصيتـهم فاستعصوا على الانفعال وسط الجماعة قليـون ولا طاقة لهم بمصادمة تيار الجميع، بل الذي يقدرون عليه هو تحويل الاندفاع إلى غرض آخر كما وقع، أحياناً من أن لفظاً سعيداً أو خيالاً يمثل في الوقت المناسب أمام الجماعة يسدـها عن ارتكاب أفظـع الأفعال.

والخلاصة أن انكماش الذات الشاعرة وسلطـة الذات اللاشعورية واتجـاه المشاعر والأفكار بعامل التأثير والعدوى نحو غرض واحد، والأهبة إلى الانتقال فوراً من الأفكار التي أشير بها إلى الفعل؛ هي الأخـلـقـةـ الخاصةـ التيـ يـتـخـلـقـ بهاـ الفـردـ فيـ الجـمـاعـةـ،ـ فهوـ لمـ يـعـدـ هوـ بلـ صـارـ آلـةـ لاـ تحـكـمـهاـ إـرـادـتـهـ.

ومن أجل ذلك يهـبطـ المرءـ بمـجرـدـ انـضـمامـهـ إـلـىـ الجـمـاعـةـ عـدـةـ درـجـاتـ منـ سـلـمـ المـدنـيـةـ،ـ ولـعـلهـ فيـ نـفـسـهـ كانـ رـجـلاـ مـثـقـفـ العـقـلـ مـهـذـبـ الـأـخـلـاقـ،ـ ولـكـنـهـ فيـ الجـمـاعـةـ سـانـدـ تـابـعـ لـلـغـرـيـزـةـ،ـ فـيـهـ اـنـدـفـاعـ الرـجـلـ الـفـطـرـيـ وـشـدـتـهـ،ـ وـفـيـهـ عـنـفـهـ وـقـسـوـتـهـ،ـ وـفـيـهـ حـمـاسـتـهـ

وشعاعته، وفيه منه سهولة التأثير بالألفاظ والصور، مما لم يكن يتأثر به وهو خارج الجماعة، ثم فيه الانقياد بذلك إلى فعل ما يخالف منافعه البدوية ويناقض طباعه التي اشتهرت عنه، وبالجملة فإن الإنسان في الجماعة أشبه بحبة من رمال تثيرها الريح ما هبت.

ذلك هو السر في أن جماعة الملحدين تصدر قرارات يردها كلُّ من أفرادها إذا عرضت عليه وحده، وفي أن المجالس النيابية تسن من القوانين وتقرر من الأعمال ما يرفضه كلُّ عضو من أعضائها بمفرده. كل واحد من رجال الثورة (كونفانسيون) الفرنساوية كان فرداً متنوراً ذا طباع سليمة، فلما صاروا جماعة لم يحتموا عن تقرير أفضع الأعمال حتى أسلموا للإعدام أظهرَ الناس براءةً من الآثام، ثم خالفوا منافعهم فتنازلوا عن حق احترام الناس في ذواتهم، وحصلَ بذلك بعضهم بعضاً ليس هذا هو كل ما يفترق به الفرد في الجماعة عن نفسه منفرداً افتراقاً كلياً، بل إنه قبل أن يفقد استقلاله الذاتي تتغير أفكاره ومشاعره تغييراً كلياً، فيصير البخيل مسرفاً، والمتrepid سريع الاعتقاد، والتقي شريراً، والجبان شجاعاً ... هكذا قرر الشرفاء لما تحمسوا ليلة ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ الشهيرة التنازلَ عن امتيازاتهم، ومن الحق أنه لو طلب ذلك من كل واحد منهم على انفراده لرفضه رفضاً باتاً.

نستنتج مما تقدم أن الجماعة دائمًا دون الفرد إدراكاً، ولكنها من جهة المشاعر والأعمال الناتجة عنها قد تكون خيراً منه أو أرداً على حسب الأحوال، والأمر في ذلك راجع إلى الكيفية التي تستفز بها، وهذا هو الذي أهمله الكتاب الذين قصروا بحثهم في الجماعات على جهة الشر منها، فإذا صح أن الجماعة شريرة في كثير من الأوقات، فمن الصحيح أيضاً أنها شجاعة في أوقات كثيرة أخرى، تلك حال الجماعات التي يستفزها قوادها إلى التقاتل في نصرة الدين أو تأييد المذهب، أو يستحثونها للعمل في سبيل المجد والفخار، فيقودونها بلا تعب وبغير سلاح لتخلص حزب الله من يد الكافرين كما في حروب الصليبيين، أو للذود عن حومة الوطن كما وقع في سنة ١٧٩٣، نعم ذلك الشجاع لا يقر بشعاعته، ولكنها هي مادة التاريخ، فإنما لو اقتصرنا على تعداد الأعمال العظيمة التي فعلتها الأمم وهي هادئة مطمئنة ما وجدنا من ذلك إلا يسيراً.

الفصل الثاني

مشاعر الجماعات وأخلاقها

بعد أن أجملنا القول في أهم خواص الجماعات ينبغي أن نأتي عليها بالتفصيل. كثير من الصفات الخاصة بالجماعة كقابلية الاندفاع والغضب وعدم القدرة على التعقل، وفقدان الإدراك وملكة النقد والتطرف في المشاعر وغير ذلك، يشاهد أيضًا في الأفراد الذين لم يكمل تكوينهم كالمرأة والتوحش والطفل، ولكنني لا أذكر هذه المشابهات إلا عرضًا؛ إذ الدليل عليها يخرج عن دائرة هذا الكتاب على أن ذلك غير محتاج إليه لدى من عرف أحوال النفس عند الأقوام الذين لا يزالون على فطرتهم الأولى، ثم هو لا يقنع من الإسلام له بتلك الأحوال إقناعاً تاماً.

ولنشرع في شرح كل صفة من الصفات التي توجد في أغلب الجماعات.

(١) قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب

قدمنا عند الكلام في صفات الجماعة الأولية أنها منقادة عادة إلى العمل من دون أن تشعر بالدافع إليه، فتأثير المجموع العصبي في أفعالها أكبر جدًا من تأثير المخ، وهي بذلك تشبه كثيراً الرجل الفطري. وقد تكون الأفعال التي تصدر عنها كاملة من حيث التنفيذ، إلا أن العقل لم يكن رائدها فيها، بل إن الفرد في الجماعة يعمل طوعًا للمؤثرات التي تدفعه إلى الفعل، فالجماعة ألعوبة في يد المهيجات الخارجية، وهي تمثل تقلباتها المستمرة وحينئذ هي مسخرة للمؤثرات التي تقع عليها، نعم قد يقع الرجل منفردًا تحت تلك المؤثرات عينها، لكن عقله يرشده إلى مضارها فلا ينقاد لحكمها، وذلك ما قد يعبر عنه علماء وظائف الأعضاء بأن في الرجل وحده قدرة يتمكن بها من ضبط أعصابه دون الجماعة إذ ليس لها شيء من ذلك.

تبغ الدوافع المختلفة التي تبعث الجماعة إلى الفعل طبيعة المؤثرات التي ترجع إليها، فتكون رحيمة أو قاسية عليها مسحة الإقدام أو الخمول، لكنها تكون على الدوام شديدة فلا تثنى المنافع الذاتية حتى منفعة حفظ الذات نفسها.

ولما كانت أنواع المؤثرات في الجماعة مختلفة جدًا وكانت الجماعة تخضع لها دائمًا لزم أن تكون الجماعة متقلبة كذلك، وهذا هو السبب في أنها تنتقل فجأة من أفضع الأعمال إلى أكبرها رحمة وكرماً، مما أسهل ما تصير الجماعة جلادة، ولكن ما أيسر ما تكون ضحية أيضًا، وما سالت الدماء التي اقتضتها تأييد كل عقيدة في الوجود إلا من بطون الجماعات. ولسنا في حاجة إلى أن نذهب بعيدًا في التاريخ لنعلم ما تقدر عليه الجماعات في هذه السبيل فما ساومت على حياتها في ثورة، ومنذ أعوام قليلة ذاعت شهرة أحد القواد فجأة في الناس، ولو أنه أراد لوحد مائة ألف نفس مستعدة للاقتاله الموت انتصارًا له.^١

وعلى ذلك لا يوجد من أفعال الجماعة ما هو صادر عن قصد ورويَّة، فهي تنتقل من شعور إلى شعور، وهي على الدوام خاضعة لتأثير الشعور المستحوذ عليها وقت الفعل مثلًا في ذلك مثل أوراق الشجر تحملها العاصفة وتبددها شذر مذر ثم تسكن فتهبط. وسنأتي بأمثلة على تقلبات الجماعة عند الكلام على بعض الجماعات الثورية. وشدة تقلب الجماعة يجعل قيادها صعبًا على من يزاوله خصوصًا إذا وقع في يدها فسقط من السلطة العامة، ولو لأن مقتضيات الحياة اليومية تفعل في الأمور كمنظم خفي لتعسر جدًا البقاء على الديمقراطية (الحكومات التبابية)، إلا أنه بقدر ما تتطرف الجماعة في إدارة الشيء تسرع بالعدول عن تلك الإرادة، فإنها لا قدرة لها على الإرادة المستمرة، كما أنها لا تقدر على إطالة النظر والتفكير.

ليست قابلية الاندفاع والتقلب كل ما تمتاز به الجماعة، بل هي مع ذلك كالهمجي لا تطيق وجوده حائلًا بينها وما تريده، والذي يساعدها على أن لا تعقل الحيلولة أن الكثرة تحدث فيها شعورًا بقوة لا حد لها، فتصور المستحيل بعيد عن الفرد في الجماعة. يشعر الرجل منفردًا بعجزه عن إحراق قصر أو سلب حانوت، فإن دفعه دافع قاوم وامتنع، فإذا دخل الجماعة أحس بقوة لم تكن له من قبل وتشجع بكثرة العدد، وكفى أن يشار إليه بقتل أو سلب ليناسب انسياً لا يتثنى عنه شيء، فإن كان في طريقه عقبة اقتحمها بعنف وشدة، ولو احتمل تركيب الإنسان دوام الغضب لقلنا إن الحالة الطبيعية للجماعة التي خولفت في مقصدها هي الغضب الدائم.

وليلاحظ أن خصال الشعب الأساسية منضمة دائمًا إلى صفات الجماعات الخاصة من قابلية الغضب والاندفاع والتقلب وجميع المشاعر القومية التي سنأتي عليها، فالأولى هي الأساس الذي ترتكز عليه الثانية. ولبيان ذلك نقول: إن كل جماعة قابلة للغضب والاندفاع لكنها تتفاوت في ذلك كثيراً، فالفرق جلي بين جماعة لاتينية وجماعة إنكليزية سكسونية. وأقرب الحوادث في تاريخنا يوضح ذلك بأجل بياني، فقد كفى منذ خمس وعشرين حجة تلواه نبأ برقي عن إهانة فرض وقوعها لسفيرنا حتى هاجت الأمة وثارت ثائرتها، وتولد من ذلك ل ساعته حرب ما كان أشد هولها. وبعد ذلك ببضع سنين ورد نباء آخر بانكسار تافه لجيوشنا في (إنجسون)، فقامت القيامة وسقطت الحكومة في الحال، وفي ذلك الزمن عينه انكسرت الحملة الإنكليزية أمام الخرطوم انكساراً أكبر من هذا بكثير، فلم ينزعج له الرأي العام الإنكليزي إلا قليلاً، ولم تتردز من أجل ذلك وزارة عن مركزها، كل الجماعات في كل الأمم كالنساء وأشدتها شبيهاً بهن الجماعات اللاتينية، فمن اعتمد عليها جاز أن يرقى إلى الذرى في وقت قصير، لكنه يكون على الدوام مماساً لصخرة زبيان^٢ وموقاً أنه سيتدحر يوماً من الأيام.

(٢) قابلية الجماعة للتأثير والتصديق

قلنا في تعريف الجماعات إن من أخص صفاتها قابليتها الشديدة للتأثير، وبيننا كيف أن التأثير معد في كل مجتمع إنساني، وفي ذلك إيضاً لسرعة توجه المشاعر كلها نحو غرض محدود.

وكيفما ظهرت على الجماعات شارات الهدوء والسكون، فإنها على الدوام في حالة انتظار واستعداد يجعل التأثير فيها سهلاً، فأول مؤثر يbedo تراه يخضعها لحينه بامتداد عداه إلى رءوس الكل، وفي الحال يحصل اتجاه الجميع نحو الغرض المقصود، وسواء كان ذلك الغرض إحراق قصر أو إيتيان عمل كريم، فإنها تندفع نحوه بسهولة واحدة، والأمر إنما يتوقف على طبيعة المحرك لا على ما يرجحه العقل من وجوب إمضاء الفعل أو الإحجام عنه كما في الأفراد. ولما كانت الجماعة على الدوام محلقة في حدود اللاشعور تتتأثر بالسهولة من جميع المؤثرات وذات إحساس قوي كإحساس الأشخاص الذين لا تمكنهم الاستعانة بالعقل ومجده من مملكة النقد والتمييز، كان من شأنها أن تكون سريعة التصديق سهلة الاعتقاد، فهي لا تعرف الغير المعقول، فليذكر ذلك القراء ليفقهوا السر في سرعة انتشار الأفاصيص التي تخرج عن حد المعقول.^٣

ثم إن سرعة تصديق الجماعة ليس هو السبب الوحيد في اختراع الأقاصيص التي تنشر بسرعة بين الناس، بل لذلك سبب آخر وهو التشويه الذي يعتور الحوادث في مخيلة المجتمعين؛ إذ تكون الواقعة بسيطة للغاية فتنقلب صورتها في خيال الجماعة بلا إبطاء لأن الجماعة تفكير بواسطة التخيلات، وكل تخيل يجر إلى تخيلات ليس بينها وبينه أدنى علاقة معقوله، وإنما لدرك هذه الحال إذا ذكرنا ما قد يتوارد علينا من الأفكار الغريبة لمجرد تخيلنا واقعة من الواقع، والفرق بيننا وبين الجماعة أن العقل يرشدنا إلى ما بين هذه التخيلات وبعضها من التناقض والتباين، وأنه ليس في قدرتها أن تصل إلى مثل هذا التمييز وأن كل ما أحدهه خيالها من التشويش تضifieه إلى أصل الحادثة، فهي لا تفرق بين الشيء وما يرمي إليه، بل هي تقبل جميع الخيالات التي تعرض لها، ولا نسبة في الغالب بين تلك الخيالات وما وقع تحت الحس أولاً.

ولقد كان يجب تعدد صور التشويش التي تدخلها الجماعة على حادثة شاهدتها وتتنوع تلك الصور لأن أمزجة الأفراد الذين تتكون هي منهم مختلفة متباعدة بالضرورة، لكن المشاهد غير ذلك والتشويش واحد عند الكل بعامل العدوى؛ لأن أول تشويش تخيله واحد من الجماعة يكون كالخمية التي تنتشر منها العدوى إلى البقية، فقبل أن يرى جمع الصليبيين القديس جورج فوق أسوار بيت المقدس كان بالطبع قد تخيله أحدهم أولاً، فما لبث التأثر والعدوى أن مثلاه للبقية جسمًا مرئياً.

هكذا وقعت جميع التخيلات الاجتماعية الكثيرة التي رواها التاريخ، وعليها كلها مسحة الحقيقة لمشاهدتها من الألوف المؤلفة من الناس.

ولا ينبغي في رد ما تقدم الاحتجاج بمن كان بين تلك الجماعات من أهل العقل الراوح والذكاء الوافر؛ لأنه لا تأثير لتلك الصفة في موضوعنا، إذ العالم والجاهل سواء في عدم القدرة على النظر والتمييز ما داموا في الجماعة. ورب معترض يقول: إن تلك سفسطة، لأن الواقع غير ذلك، إلا أن بيانه يستلزم سرد عدد عظيم من الحوادث التاريخية، ولا يكفي لهذا العمل عدة مجلدات، غير أنني لا أريد أن أترك القارئ أمام قضايا لا دليل عليها، ولذلك سأتاصل ببعض الحوادث أنقلها بلا انتقاء من بين ألوف الحوادث التي يمكن سردها.

وأبدأ برواية واقعة من أظهر الأدلة في موضوعنا لأنها واقعة خيال اعتقدته جماعة ضمت إلى صفوفها من الأفراد صنوفاً وأنواعاً ما بين جاهل غبي وعالم المعنى، رواها عرضاً ربان السفينية جولييان فيليكس في كتابه الذي ألفه في مجرى مياه البحر، وسبق نشرها في (المجلة العلمية) قال:

كانت المدرعة (لابيل بول) تبحث في البحر على الباخرة (بيرسو) حيث كانت قد انفصلت عنها بعاصفة شديدة، وكان النهار والشمس صافية، وبينما هي سائرة إذا بالرائد يشير إلى زورق يساوره الغرق، فشخص رجال السفينة إلى الجهة التي أشير إليها ورأوا جميعاً من عساكر وضباط جلياً زورقاً مشحوناً بالقوم تجره سفن تخفق عليها أعلام البأس والشدة ... كل ذلك كان خيالاً، فقد أنفذ الربان زورقاً صار ينبع البحر إنجاداً للبائسين، فلما اقترب منهم رأى من فيه من العساكر والضباط أكداساً من الناس يموجون ويمدون أيديهم، وسمعوا ضجيجاً مبهماً يخرج من أفواه عدة حتى إذا وصلوا المرئى وجدهم أغصان أشجار مغطاة بأوراق قطعت من الشاطئ القريب، وإن تجلت الحقيقة غاب الخيال.

هذا المثال يوضح لنا عمل الخيال الذي يتولد في الجماعة بحال لا تحمل الشك ولا الإبهام كما قررناه من قبل، فهنا جماعة في حالة الانتظار والاستعداد، وهناك رائد يشير إلى وجود مركب حفها الخطر وسط الماء مؤثراً سرت عدواه فتلقاء كل من في الباخرة عساكر وضباطاً.

ليس من الضروري أن تتتألف الجماعة من عدد كبير حتى تنتهي حاسة إبصار الأشياء على حقيقتها، وتبدل الحقائق بخيالات لا ارتباط بينها وبينها، بل متى اجتمع بعض أفراد تألفت منهم جماعة لها ما لكل الجماعات من الصفات وإن كانوا من أكابر العلماء، وليس هذه الصفات كل واحد منهم فيما هو بعيد عن اختصاصه العلمي، وفي الحال تنزوبي مملكة التمييز وتنطفئ روح النقد في كل واحد منهم، ومن الأمثلة الغربية على ذلك ما رواه لنا موسينيو (دافي) وهو أحد علماء النفس المحققين، وقد نشرته حديثاً مجلة (أعصر العلوم النفسية)، ويحسن بنا إيراده. دعا إليه موسينيو (دافي) عدداً من كبار أهل النظر وفيهم عالم من أشهر علماء إنكلترا هو المستر (ولاس)، وقدم لهم أشياء لمسوها بأيديهم ووضعوا عليها ختماً كما شاءوا، ثم أجرى أمامهم جميع ظواهر فن استخدام الأرواح من تجسيم الأرواح والكتابة على (الإردواز) وهكذا، وكتبوا له شهادات قالوا فيها إن الشهادات التي وقعت أمامهم لا تزال إلا بقوة فوق قوة البشر، فلما صارت الشهادات في يده أعرب لهم أن ما كان إنما هو شعوذة ما أبسطها. قال راوي الحادثة: والذي يوجب الدهش والاستغراب في بحث مسيو (دافي) ليس إبداعه وممارسته في الحركات التي قام بها، بل ضعف الشهادات التي كتبها أولئك الشهود الذين كانوا يجهلونها، وأن

الشهود قد يذكرون روایات كثيرة واقعية كلها خطأ، وأنه لو صح وصفهم الحوادث التي يرونها لتعذر تفسيرها بالشعودة، على أن الطريقة التي استتبّ لها موسیو (دافی) بسيطة يندهش الإنسان لبساطتها من جراءته على استعمالها، ولقد كان له من التأثير في أفكار جماعته ما جعلها ترى ما لم تكن ترى.

ذلك هو تأثير المنوم في المنوم دائمًا، وإذا تبين أن هذا التأثير جائز في عقول سامية بعد أن أذنرت، فكم يكون من السهل التأثير في عقول الجماعة العادمة. والأمثلة التي من هذا القبيل لا تحصى. أنا أكتب هذه السطور والجرائد ملأى بذكر غرق ابنتين صغيرتين وانتفالهما من نهر (السين).

عرضت الجثتان فعرفهما بضعة عشر شخصاً معرفة أكيدة واتفقت أقوالهم اتفاقاً لم يبق معه شك في ذهن قاضي التحقيق، فرخص بدفنهما، وبينما الناس يتهدّأون لذلك ساق القدر البنتين اللتين عرفهما أولئك الشهود بالإجماع، وبأن أنهما باقيتان ولم يكن بينهما وبين الفقيدين إلا شبه بعيد جدًا. والذي وقع هنا هو بذاته ما وقع في الأمثلة التي سردناها، تخيل الشاهد الأول أن الغريقتين هما فلانة وفلانة، فقال ذلك وأكده، فسرّت عدوى التأثير إلى البقية.

وأول مراتب التأثير في هذه الحوادث وأمثالها هو على الدوام ما يتولد من الخيال عند أحدهم بسبب حضور بعض المشابهات المبهمة في ذاكرته، ثم يتدرج من ذلك إلى القول بما تخيل فتتشاءّ عدوى التأثير بذلك الخيال الأول. فإذا كان أول من يقع الحادث تحت حواسه سريع التأثير يكفي أن يكون في الجثة التي تعرض عليه علامة أو أثر خاص كالذى قد يكون في الجسم الذي سبقت له معرفته ليتخيل أنها هي ولو لم يكن بينهما أدنى شبه حقيقي في الخلة، إذ ذاك يصير الخيال الأول أشبه بنواة ذات تبلور تختل ساحة الإدراك وتعطل مملكة التمييز تماماً. وحيينٌ لا يرى الإنسان الشيء الذي أمامه نفسه بل الصورة التي خيلت إليه. ومن هنا نفهم السر في خطأ الأمهات اللاتي يُخْيلُنَّ إليهنَّ أنهنَّ يعرّفنَّ جثث أولادهنَّ كما وقع في الحادثة الآتية، وهي وإن تكن قديمة العهد لكنَّ الجرائد ذكرتها أخيراً، ومنها يدرك القارئ درجة التأثير الذي بيننا كيفيته. عرف غلام جثة غلام وكان مخطئاً، وترتّب على ذلك أنَّ أشخاصاً كثيرين عرفوا الجثة كما عرفها الأول، وحدث على أثر هذه المعرفة المتكررة أمر من الغرابة بمكان؛ إذ جاءت امرأة في اليوم الثاني وهي تصريح: ربِّي إله ولدي، فلما دخلت عليه أخذت تقبل ثيابه فرأَتْ جرحًا في الجبهة، فقالت: نعم، هذا ولدي فقدته منذ شهر يوليو الماضي، ولقد

سرقوه مني ثم قتلوه. وكانت هذه المرأة حارسة باب أحد المنازل واسمها (شافاندريت)، ثم جيء بزوج أختها، فما وقع نظره على الجثة إلا وقال هذا فيلبيير. كذلك عرفه كثير من سكان حارتة كما عرفه معلم المدرسة؛ إذ رأى في عنقه تميمة من الذهب كانت لديه حجة دامغة على أنه هو ابن تلك السيدة. أجل كل أولئك الناس كانوا مخطئين، وبaban بعد ستة أسابيع أن الجثة جثة ولد من أهل مدينة (بوردو) قُتل هناك وحملته شركة النقل إلى باريس.^٥

والذى تجب ملاحظته هو أن هذه المعرفة تقع غالباً من النساء أو الصبيان، أعني من الأشخاص شديدي التأثر أكثر من غيرهم، وذلك يدلنا على مقدار قيمة مثل هذه الشهادات أمام القضاء. فالواجب أن لا يلتفت إلى قول الصبي بحال من الأحوال. يقول القضاة مجمعين إن الإنسان في هذا السن لا يكذب. ولو أنهم ارتفعوا في معرفة أحوال النفس درجة لعلموا أنه فيه يكذب على الدوام. نعم إنهم غير آمنين فيما يكذبون، ولكنهم على كل حال يكذبون وإلا لكان الأولى أن تبني العقوبات على أحد وجهي الدينار (طره ولا ياز) من أن تبني على شهادة صبي.

ولنرجع إلى مشاهدات الجماعة فنقول: إنها أكثر المشاهدات خطأ وإنها في الغالب عبارة عن خيال، فردُ واحد سرَّط عدواه إلى الجميع. وقد لا نفرغ من سرد الأمثلة التي توجب علينا الحذر والحيطة في الأخذ بشهادة الجماعة، فقد حضر ألف من الناس منذ خمس وعشرين سنة حملة الفرسان في واقعة (واترلو)، ومع ذلك يستحيل معرفة القائد الحقيقي لهذه الحملة نظراً لتناقض أقوال من شهدوها. وأثبت الجنرال (ولسلي) الإنكليزي في كتاب نشره أخيراً أن الرواية أخطأوا خطأ فاحشاً حتى الآن في سردتهم الواقع في حرب (سدام)، وهي التي أجمع المئات من الناس على صحتها.^٦

هذه الحوادث تدلنا على قيمة شهادة الجماعات. نعم إن كتب المنطق تعد إجماع العدد الكبير على الشهادة من أقطع الأدلة التي يمكن إقامتها لإثبات أمر من الأمور، ولكن الذي نعرفه من علم أحوال النفس يرشدنا إلى أنه يجب أن تؤلف كتب المنطق في هذا الموضوع من جديد، فالشك كل الشك في الواقع التي رواها الجم الغفير، والقول بأن الأمر شوهد في الزمن الواحد من ألف من الشهود هو في الغالب قول بأن الواقع يخالف كثيراً ما اتفق أولئك الشهود عليه.

نتج من هذا أنه ينبغي النظر إلى كتب التاريخ كأنها كتب أملاها الخيال لاحتواها على روایات وهمية لحوادث اصطحب بالشك وقوعها تحت الحواس وأرددت بشرحها

متاخرة عنها، وعليه فإن عمل أي عمل كيما كان ردئاً أولى من قتل الوقت في وضع مثل تلك التأليف.

ومن سوء الحظ أنه لا ثبات للأقاصيص وإن سجلت في بطون كتب التاريخ؛ لأن خيال الجماعات لا ينفك بغيرها وبحرفها مدى الزمن، بدليل ما نعرفه الآن من الفرق العظيم بين يهودنا ذلك الوحش الكاسر الذي جاء ذكره في الإنجيل ويهودنا إله الحب الذي ذكره القديس (تيريز)، ودليل أن (بودا) الذي تعبده الصين لم يبق بينه وبين (بودا) المعبود في اليابان وجه شبهه ما.

بل إنه لا يلزم أن تتعاقب الأجيال لتتغير صور عظاماء الرجال في خيال الجماعات، فإن هذا الانقلاب قد يحصل في بضع سنين لأننا شاهدنا قصة أعظم رجال التاريخ تقلب عدة مرات في أقل من خمسين عاماً. ففي عهد آل (بوربون) كان نابليون رجلاً يحب الإنسانية، حر الأفكار صديقاً للضعفاء، ولو صدق الشعراء لبقي ذكره في أكواخهم (القراء) زمناً مديداً. وبعد ثلاثين سنة صار البطل الكريم مستبداً سفاكاً استلب الحكم والحرية، وأهلك ثلاثة آلاف ألف من النفوس في سبيل أطماعه. واليوم نحن نشهد صورة جديدة لنابليون، فإذا انقضى عليه بضع عشرات من القرون داخل الريب علماء ذلك الزمان أمام هذه الروايات المتناقضة في وجود هذا البطل، كما يشك بعضهم الآن في وجود بودا، وقد لا يرون فيه إلا خرافية أو صورة مكبّرة من صورة (هرقل) اليوناني، غير أنه سيكون لهم من معرفة روح الاجتماع ما يُسري الحزن عنهم لقاء هذا الشك وخفاء الحقيقة، إذ يعلمون التاريخ إنما يقلد الخرافية والأقاصيص.

(٣) غلو مشاعر الجماعة وبساطتها

كيفما كانت مشاعر الجماعة، أي سواء كانت طيبة أو ردئه، فإن لها صفتين: بساطة للغاية، وغلواً للنهاية. ومن هذه الجهة يقل الفرق بين الفرد مجتمعاً والرجل الفطري، كما يحصل ذلك أيضاً في أحوال أخرى. فهو يفقد ملكة التمييز الدقيق، ويرى الأشياء في جملتها ولا يعرف ضرورة الانتقال من طور إلى آخر. ومما يزيد في غلو مشاعر الجماعة أن كل إحساس يبدو، فسرعان ما ينتشر بعامل التأثير والعدوى، وإجماع الكل على قبوله يزيد في قوته زيادة كبيرة.

غلو مشاعر الجماعة وبساطتها يجعلانها لا تعرف الشك ولا التردد، فهي كالنساء تذهب فوراً إلى الحد الأقصى. فالشبهة متى بدت تتقلب إلى بيدهي لا يقبل البحث، والرجل

منفرد قد لا يقر على أمر أو ينفر منه نفوراً لا يتعدى مجرد الرغبة عنه، وأما الرجل في الجماعة فإنه متى نفر انقلب نفوره حقداً شديداً.

وتزداد شدة المشاعر غلوًّا على الأشخاص في الجماعة المؤلفة من أفراد غير متشابهين لفقدان تبعة الأعمال من بينهم، فيتولد عندها من المشاعر وتأتي من الأعمال ما يستحيل صدوره عن الفرد الواحد لتحقق كل من عدم وقوعه في العقاب. وكلما كان العدد كبيراً قوي في هذا الاعتقاد وشعر بقوة حاضرة عظيمة، هنالك ينسى الجبان والجاهل والحسود درجة انحطاطهم وضعفهم ويحل محلها خيال قوة ووحشية وقتية لكنها هائلة. ومن نك الطالع أن غلو مشاعر الجماعات يظهر غالباً في الشر، وتلك بقية مما ورث أهل هذا الزمان عن آبائهم الأولين، وهي مشاعر يريد جماحها الرجل المنفرد المسؤول عن عمله مسوقاً بعامل الخوف من العقاب. وهذا هو السبب في سهولة قيادة الجماعة إلى أقبح درجات التطرف.

ومع ذلك ليست الجماعات غير قابلة للقيام بأكرم الأعمال والإخلاص وأرفع الفضائل إذا حسن التأثير فيها، بل هي أشد قبولاً لذلك من الرجل المنفرد. وسنعود إلى هذا الموضوع عند الكلام في أخلاق الجماعات.

وكما أن الجماعة تغالي في مشاعرها فلا يؤثر فيها إلا المشاعر المغالى فيها، فالخطيب الذي يريد اجتناب قلوبها يلزمها الإكثار من التوكيدات الحادة؛ لأن المبالغة والتوكيد والتكرار وعدم التعرض أبداً إلى إقامة البرهان على أي قضية، كلها وسائل خطابية يعرفها خطباء الاجتماعات العمومية حق معرفتها.

تطلب الجماعة من أبطالها الغلو أيضاً في مشاعرهم، فمما ينبغي لهم من أجلها أن يُفخّموا في ألقابهم ويعظموا من فضائلهم الصورية. وقد شوهد أن الجماعة تطلب من أبطال الروايات في مراسح الملاهي شجاعة وأخلاقاً وفضائل ليست لأحد في الوجود الحقيقي.

والكثير ينسب هذا الميل لأحوال الملاهي الخاصة التي تُولد في نفوس المترجين هذا الشعور. نعم لتنسيق المراح على نحو مخصوص فن ذو قواعد، غير أنها قواعد لا تنطبق غالباً على ما يقتضيه الذوق السليم والأحوال المنطقية. الواقع أن فن الخطابة في الجماهير ذو درجة منحطة، إلا أنه يقتضي صفات مخصوصة. وكثيراً ما يحار الإنسان عند تلاوة رواية في معرفة السبب في نجاحها، حتى إن مديري الملاهي أنفسهم عندما تقدّم إليهم تلك الروايات يشكّون في نجاحها لأنهم لا يقدرون على الحكم عليها إلا إذا

لبسوا ثوب جماعة متفرجين.^٧ ولو أنه أتيح لنا التوسع في هذا البحث لبيتاً رجحان تأثير الأخلاق القومية في هذا المقام؛ لأن الرواية التي تخرب العقول في بلد قد لا يلتفت إليها في بلاد غيرها إلا بقدر ما تقضي به المجاملة والاصطلاح؛ لأنها لا تحرك في غير بلدها شجون ساميها وهو شرط نجاحها.

لست في حاجة إلى القول بأن مغالاة الجماعات تكون على الدوام في مشاعرها، ولا تتعدى إلى قوتها العاقلة أبداً. فقد سبق لي بيان أن مدارك الرجل في الجماعة تنحط سريعاً انحطاطاً عظيماً، ذلك هو ما شاهده أيضاً أحد أफاضل القضاة مسيو (شارد) في مباحثه عن جرائم الجماعات، وعليه فالجماعة إنما ترتقي أو تنحط في دائرة المشاعر.

(٤) عدم مسالمة الجماعات وميلها إلى التسلط والإمرة والمحافظة على القديم

قلنا إن الجماعات لا تعرف من المشاعر إلا ما كان متطرفاً بسيطاً، وهي لذلك تقبل ما يلقى إليها من الآراء والأفكار والمعتقدات بجملتها أو ترفضها كذلك، فتأخذها حقائق مطلقة أو ترغب عنها أباطيل مطلقة على أن هذا هو الشأن في المعتقدات التي تتحصل من طريق التقلي لا التي تتصل بالإنسان من طريق النظر والتعقل. وكلُّ يعرف ما للمعتقدات الدينية من التأثير في عدم احتمال المخالف ومن السلطان على النفوس.

ولما كان باب الشك غير مفتوح أمام الجماعة في كل ما اعتقادت أنه حق أو باطل، وكانت تشعر شعوراً تاماً بقوتها كانت إمرتها مساوية لعدم احتمالها. يطبق الفرد المناظرة والخلف، أما الجماعة فلا تطبق ذلك أبداً، وأقل خلف يأتي به الخطيب الذي يتكلم في المجتمعات العمومية يتلقاه السامعون بأصوات الغضب والسباب الشديد، فإن أصر فنصبيه الإهانة والطرد بلا إمهال، ولو لا الرهبة من رجال الشرطة الحاضرين لقتلوه أحياناً.

عدم الاحتمال والإمرة شائعان في الجماعات كلها، غير أنها يختلفان في كل واحدة منها، وهنا أيضاً يظهر لنا أثر الأخلاق القومية المتسلط على جميع مشاعر الناس وأفكارهم. فأقصى درجات عدم الاحتمال والإمرة توجد في الجماعات اللاتينية، إذ بلغت عندها إلى حد أنها أماتت في الفرد روح الاستقلال التي هي أشد أخلاق الإنكليزي السكسوني، فلا تهتم الجماعات اللاتينية إلا باستقلال المجموع الذي هي منه، وأخص مميزات هذا النوع من الاستقلال شدة الميل إلى التعجيل بإخضاع المخالف في الرأي

لعتقد الجماعة عنوة وقسراً، ذلك هو نوع الحرية الذي عرفه المتطرفون في كل عصر، ولم يكن في قدرتهم أن يعرفوا سواه.

الإمرة وعدم الاحتمال حاستان من الحواس التي تجيد الجماعات معرفتها، فهي تدركهما بسهولة وتتلقاهما بسهولة وتعمل على مقتضاهما بسهولة عند الطلب، وهي تحترم القوة وتتخنن لها ولا تتأثر بالحسنى إلا قليلاً؛ لأنها في نظرها صورة من صور الضعف ليس إلا، لذلك لم تمل إلى رؤسائهما الذين عرموا بالرفق واللين، بل إلى الطغاة المستبددين سحقوها. مثل هؤلاء تقيم الجماعة التماذيل في كل عصر وأوان، وإذا تخطت بالأقدام فوق غشوم سقط من عليائه، فذلك لأنه فقد سلطانه واندرج في عداد الضعفاء الذين يحقرن لكونهم لا يخشون. فأعز الأبطال لدى نفوس الجماعة من كان شبيهاً بقيصر يخلبهم جلبابه ويرهباهم سلطانه ويختفهم صولجانه.

الجماعة في استعداد دائم للانتفاض على السلطان إذا ضعف، وهي تحني الرأس أمام الوازع المنين، فإن تناوبه الضعف والقوة عامله بمقدار مشاهدتها المطرفة وانتقلت من النوع إلى الفوضى، وثبتت من الثورة إلى النوع.

ولقد يخطئ في إدراك حقيقة الاجتماع من يظن أن الروح السائدة على الجماعات دائمًا هي الثورة، والذي يوجب الشبهة في ذلك إنما هو تعسفها وقوتها. والحقيقة أن انفجار برakan الثورة منها وصدره أعمال التخريب عنها نزعة عرضية تخمد سريعاً، لأن خضوعها لفواضل الوراثة شديد بقوة تأثير الغرائز الفطرية، فهي ميالة كل الميل إلى المحافظة على الحال التي هي، ومتى تركت و شأنها ملت الفوضى و سارت بفطرتها إلى الاستكانة والاستعباد، هكذا كان أشد القوم تهليلاً و ترحيباً بالقائد بونابرت هم أشد رجال الثورة تغطرساً و تطرفاً لما أجم جميع الحريات وأنقل بيديه التي من حديد.

ومن الصعب أن نفهم التاريخ لا سيما تاريخ ثورة الأمم إذا لم نكن على علم تام بتأصل علم الجماعات إلى المحافظة. تبغي الجماعات استبدال أسماء نظاماتها، وقد تثور الثورة العنيفة للوصول إلى ذلك التغيير، لكن لب هذه النظمات من حاجات الأمة التي تلقتها عن الآباء والأجداد، فهي ترجع إليه على الدوام. وأما تقلباتها المستمرة فلا تتعلق إلا بالمسائل العرضية، والحاصل أن عاطفة المحافظة في الجماعات قوية كما هي عند أهل النشأة الأولى. يبلغ احترامها للتقاليد حد العبادة، وتبغض أشد البغض بفطرتها كل جديد من شأنه تغيير أحوال معيشتها الحقيقية، ولو أن سلطة الديمقراطية بلغت أيام اختراع الصنائع المخانيكية واكتشاف البخار والسكك الحديدية ما بلغته الآن لاستحال

تحقيق هذه المخترعات، أو لكان ثمنها كثيراً من الثورات وقتل الألوف من النفوس. فمن حسن حظ الحضارة أن سلطة الجماعات ما بدأت في الظهور إلا بعد أن تم تحقيق الاكتشافات العظيمة العلمية والصناعية.

(٥) أخلاقيات الجماعات

إذا أردنا من كلمة الأخلاق دوام الاحتفاظ بما اصطلح العموم على مراعاته وقمع النفس عن الاسترسال مع نزعات حب الذات، فليست الجماعة أهلاً لشيء من ذلك لشدة نزقها وعدم ثباتها، لكن إذا أدخلنا ضمن معنى هذا اللفظ التخلُّق مؤقتاً ببعض الصفات كإهمال الذات والإخلاص والتنتَّة عن الغاية وتضحية النفس والميل إلى الإنفاق، جاز لنا أن نقول بأن الجماعات أهل للتجلُّل بأخلاق عالية.

أما السبب الذي حدا بالقليل من علماء النفس الذين بحثوا في أحوال الجماعات إلى الحكم عليها بانحطاط الأخلاق، فهو كونهم قصرُوا بحثهم على جهة الشر فيها فلاحظوا أن أعمالها من هذه الجهة كثيرة.

نعم هذا هو الغالب في الجماعات، وعلته أن العصور الماضية تركت من شرها وخشونتها بقية اطمأنَت في قلب كل واحد منها، والفرد لا يجرأ على الاسترسال مع هذه البقية حذر الوibal الذي تجره عليه. أما الجماعة فغير مسؤولة عن أعمالها، فإذا هو انخرط فيها أمن العقاب ونشط من عقاله فاتبع هواه. لا ترى أنه لما لم يجرأ على الشر مع أمثاله مال به إلى الحيوان فواصله بالأذى. فشهوة الإيذاء عند الجماعة من طبيعة شهوة الصيد عند المغرين به، فهي تفترس الرجل إذا غضبت فلا تأخذها شفقة ولا يثنِّيها حنان، وهم يجتمعون زمراً زمراً ليشهدوا بقلوب قاسية كلابهم تمزق بأنيابها الوعل الضعيف، والكل في نظر الحكيم وحش مفترس.

بقي أن الجماعة كما أنها أهل لارتكاب القتل والتدمير بالنار وكل أنواع الجرائم، هي أهل للإخلاص في العمل ولتضحيَّة المُنافع الذاتية والنزاهة بدرجة أرقى مما يقدر الفرد، بل هي أقرب منه إلى تلبية من يناديها باسم الشرف والفاخر أو باسم الدين والوطن إلى حد المخاطرة بالأرواح. وأمثلة الصليبيين ومتطوعي سنة ٩٣ كثيرة يخطئها العد في التاريخ، فالجماعة دون الفرد أهل لعظامِ الأعمال في باب النزاهة والإخلاص، وكم من جماعة تقدمت إلى الموت في سبيل معتقدات وأفكار وكلمات كانت تكاد لا تتفقه شيئاً من معانيها، حتى إن الجماعة التي تقوم بالاعتصام إنما تعتصب لصدر الإشارة بذلك

إليها أكثر من ميلها لنيل الزيادة في الأجر الزهيد الذي اقتنعت به من قبل؛ لأن المصلحة الذاتية قلما تكون سبباً قوياً لحركات الجموع، وهي على التقرير السبب الوحيد في عمل الفرد، فليست هي التي ساقت الجم الغفير من الجموع إلى الحروب من دون أن يدرك السبب فيها ولا الغرض منها، ولا هي التي جعلتهم يتسلطون على عجل بين يدي الموت كالقبة يسحرها الصياد بمرأته فتدنو إليه.

حتى الأوغاد كثيراً ما يكون انضمهم إلى الجماعة علة في ارتقاء الملوك الفاضلة في نفوسهم وقتاً ما كما لاحظه (تاين) في قتلة شهر سبتمبر الدين كانوا يلتقطون كل ما وجدوه من الأموال ونفيس المتع ويقدمونه للجنة مع أنه كان من السهل عليهم إخفاؤه، كذلك الجماعة التي وجهت على قصر (التوليري) في ثورة سنة ١٨٤٨ لم يتناول فرد منها شيئاً من تلك النفاثات التي بهرتها، وقد كان يكفيه قوت عدة أيام مع كونها كانت شديدة الغضب عنيفة الصخب مرذولة الآخر. نعم تهذيب الجماعة للفرد ليس هو القاعدة المطردة، ولكنه كثير الوقوع حتى في أحوال أقل شدة من التي تقدم ذكرها، وقد سبق لنا القول بأن جماعة المتفرجين يطلبون من المنشدين أفضل الأخلاق وأرفع الفضائل، ومن السذاجة أن نقول بأن الجماعة وإن تكونت من أفراد منحط الأخلاق تظهر غالباً بمظهر الكمال، هكذا المنغمس في الموبقات والديون والوغد يز Morrison غالباً إذا رأوا منظراً منافياً للأدب، أو سمعوا هذراً يعد تافهاً بجانب حديثهم الذي تعودوا في ندواتهم.

ثبت مما تقدم أن الجماعة كما أنها تمثل إلى الدنيا هي أهل للتحلي بأخلاق عالية، وإذا صح أن يكون التنزيه في العمل والجلد والإخلاص المطلق لمبدأ وهمي أو صحيح من الفضائل الأدبية جاز القول بأن للجماعة في الغالب من ذلك ما ليس لأعقل الحكماء إلا قليلاً حقاً، هي تزاول تلك الفضائل لا عن قصد ولكن ما ضرنا من هذا، ونحن لا ينبغي لنا أن نشكوا كثيراً من الأفعال التي تصدر عن الجماعات بمحض غريزتها إلا النادر؛ لأنها لو تعقلت أحياناً ورجعت إلى منافعها القربيّة منها ما قام على وجه البسيطة ركن من أركان الحضارة، ولا كان للإنسانية تاريخ يتلى.

هوامش

(١) يشير المؤلف إلى الجنرال بولنجيه أحد رؤساء الجنود الفرنسيات في العقد التاسع من القرن الماضي، حيث أصبح كالنار على علم شهرة وقولاً، التفت حوله القلوب التقافاً، دعاه إلى الهرب من جميع الاحتفالات العمومية خفة الهرج والافتتان به، ولو لا أنه عاجله المنية لجدد زمان نابوليون وأتى الفرنسيون تحت إمرته ما لم يكن في الحسبان.

(٢) هي صخرة عالية كان يرمي ببعض الجناة من حالتها.

(٣) الذين شهدوا حصار مدينة باريس يعرفون أمثلة كثيرة من سرعة تصديق الجماعات بما لا يتصوره العقل، من ذلك أنهم كانوا يرون في مصباح أ OCD في نافذة أحد المنازل إشارة معطاة للعدو، مع أن أقل التفقات كان يكفي للاقتناع باستحالة رؤية العدو لضوء ذلك المصباح، وهو بعيد عنه بعده أميال.

(٤) والواقعة مجرد خيال لكنها جرت مجرى الحقيقة لإجماع الصليبيين عليها.

(٥) أقرأ جريدة (أكليير)، ٢١ أبريل سنة ١٨٩٥.

(٦) إنني أشك كثيراً في أننا نعرفحقيقة سير حرب واحدة، والذي نعرفه إنما هو الغالب والمغلوب، وأظن أننا لا نعرف غير ذلك، والذي رواه الدوق (داركور) عن حرب (سولفيرينيو) يصدق على جمع الحرب، قال: يكتب القواد تقاريرهم بناء على قول المئات من العسكريين، فيتناولها الضباط المكلفوون بتبليل الأوامر، ويعدلون فيها ويحررون النسخة النهائية، فيخالفهم رئيس أركان الحرب ويعيد تحريرها من جديد على حسب معلوماته، ثم يعرضونها على القائد العام فيصبح: بل أنتم مخطئون، ويحل محلها غيرها فلا يبقى من الأصل إلا يسير. وإنما حكى موسيني (داركور) هذه الحكاية ليبرهن على أن الوصول إلى معرفة حقيقة أشهر الحوادث حتى التي ضبطت ل ساعتها يكاد يكون مستحيلاً.

(٧) وبما تقدم ندرك السبب في أن الرواية الواحدة يرفضها مدير الملاهي كلهم، ثم تسنح فرصة فتشخص فتتال نجاحاً دونه كل نجاح. ونجاح رواية موسيني (كوببيه) المسماة من (أجل التاج) معروف ومشهور، بعد أن رفضها مدير الملاهي الشهير كلها مدى عشر سنين مع علو كعب المؤلف ومنزلته الأدبية الكبيرة. كذلك رواية لمارين دي شاري، أبت الملاهي كلها تشخيصها فأتفق أحد السمساره المال اللازم لتمثيلها، فمثلاً مائتي مرة في فرنسا وأكثر من ألف مرة في بلاد الإنجليز، ولو لا ما قدمناه من استحالة

نظر مدير الملاهي في الروايات نظر جماعة المترججين ما فهمَ كيف جاز أن يصدر عنهم مثل تلك الأحكام، أو يصدر عنهم مثل ذلك الخطأ الجسيم، وهم من كبار الأدباء بين أهل الفن، ولهم في تمثيل الروايات منافع كبيرة من شأنها أن تبعدهم عن الوقوع فيما وقعوا فيه. هذا موضوع لا يسعني الإسهاب فيه، وهو جدير بأن يشحذ له قلم رجل يجمع بين فن الملاهي والبراعة في علم النفس مثل موسیو سرسی.

الفصل الثالث

أفكار الجماعات وتعقلها وتخيلاتها

(١) أفكار الجماعات

بحثنا في كتابنا السابق عن تأثير الأفكار في تطور الأمم، وبيننا أن كل مدينة تقوم على أفكار أساسية محددة قلما تتجدد، وشرحنا كيف تتمكن تلك الأفكار من نفوس الجماعات، وكيف أنها لا تدخل عليها إلا بالصعوبة، وما هي القوة التي تكون لها متى احتلتها، ثم أوضحنا كيف أن التقلبات السياسية الكبرى تحدث غالباً مما يطرأ على هذه الأفكار الأساسية من التغيير، وذلك كله بالإسهاب والشرح الوافي، وعليه لا نعود إلى بسط الكلام في هذا الموضوع مرة أخرى، وإنما نوجز القول في الأفكار التي هي من مقدور الجماعات والصورة التي تتناولها عليها.

تنقسم هذه الأفكار إلى قسمين: الأول الأفكار العرضية الواقتية التي تولدها بعض الحوادث ل ساعتها ك ولوغ بفرد من الأفراد أو مذهب من المذاهب، والثاني الأفكار الأساسية التي تكتسب من البيئة والوراثة والرأي ثباتاً. مثل ذلك العقائد الدينية في الماضي والأفكار المقراطية والاجتماعية في الزمن الحالي.

فالآفكار الأساسية أشبه بماء الذي يجري الهوينا في النهر، والأفكار العرضية تشبه الأمواج الصغيرة المتغيرة على الدوام التي تضرب وجه ذلك الماء، وهي مع قلة أهميتها أظهر أمام العين من سير النهر نفسه.

وقد أخذت الآن الأفكار الأساسية التي عاش بها آباؤنا في الأضمحلال شيئاً فشيئاً، ففقدت ما كان لها من الثبات والرسوخ وتوزعت من أجل ذلك النظمات التي كانت تقوم عليها، وفي كل يوم تظهر أفكار وقتية كثيرة مما ذكرنا، إلا أن القليل منها هو الذي ينمو وهو الذي يكون له في المستقبل تأثير كبير.

وكيما كانت الأفكار التي تلقى في نفوس الجماعات، فإنها لا تسود ولا تتمكن إلا إذا وضعت في شكل قواعد مطلقة بسيطة لتبدو لها في هيئة صورة تحسنها، وهو الشرط اللازم لأن نحل من نفوسها محلّاً كبيراً. وليس بين هذه الأفكار المchorة أقل رابطة عقلية من التشابه أو التلازم، فيجوز أن يحل بعضها محل بعض، كالزجاجات السحرية التي يستخرجها العامل واحدة فواحدة من صندوقها، ذلك هو السبب في قيام الأفكار المتناقضة بجانب بعضها عند الجماعات. وعلى حسب الأحوال تكون الجماعة تحت تأثير أحد هذه الأفكار التي اجتمعت في مدركها، فتأنى بأشد الأعمال تناقضًا وتضاربًا.

هذه حال ليست خاصة بالجماعات وحدها، بل هي تشاهد أيضًا في الأفراد لا فرق في ذلك بين من لا يزال على الفطرة ومن أشبهم بناحية من نواحي العقل، كالذين غلت ثورة الدين في رؤوسهم، بل إنني شاهدت ذلك بدرجة توجب الاستغراب عند بعض مستيري الهندستان الذين تربوا في مدارسنا الأوروبية ونالوا جميع شهاداتها، فرأيت أنه ارتكز على مجموع معتقداتهم الدينية المستديم أو أفكارهم الاجتماعية الوراثية. مجموع أفكار غريبة لا علاقة بينها وبين الأولى وذلك من دون أن تؤثر فيها، وكانت هذه أو تلك تظهر في الخارج طبقاً لمقتضى الحال بجميع مشخصاتها من أعمال وأقوال، فيبدو الفرد منهم منافقاً لنفسه كل التناقض على أنه تناقض في الواقع ظاهر أكثر مما هو حقيقي؛ لأن الأفكار الموروثة هي المعلول عليه، إنما هو الأثر الذي ينتج عنه، لا ترى أن الأفكار الدينية في القرون الوسطى والأفكار الديمocratية في القرن الماضي والاجتماعية في زماننا هذا، ليست رفيعة بمقدار ما قد يظهر، فإن الفلسفة لا تعتبرها إلا أغاليط صغيرة، ومع ذلك فإنه لا حد لأثرها فيما مضى، وستكون ولا حد له فيما يأتي ستبقى هي العوامل الأساسية في حياة الدول والممالك زمناً طويلاً.

ثم إن الفكر وإن تغير حتى صار تناوله في مقدور الجماعات لا يظهر أثره إلا إذا دخل في عداد الغرائز وامتزج بالنفس، فصار من المشاعر، وهو ما يقتضي زمناً طويلاً، ولذلك وسائل ستأتي على بيانها في موضع آخر.

فلا يتوهمن القارئ أن أثر الفكر يظهر متى تبيّنت صحته حتى عند ذوي العقول النيرة. يتضح ذلك لمن عرف ضعف تأثير صحة الفكر في السواد الأعظم من الناس بعد ظهورها جلياً. نعم إذا تم الوضوح جاز الاعتراف من السامعين إن كانوا من المستيريين، غير أنهم لقرب عهدهم بالإيمان لا يلبثون أن ترجعهم فطرتهم إلى معتقدهم القديم، فإذا لاقتهم بعد قليل من الأيام رأيهم يسوقون إليك حجتهم الأولى في ثيابها الأولى

بلا تغيير؛ لأنهم خاضعون لسلطان أفكار أصبحت بحكم الزمان ملكات فطرية، وهي وحدها الفعالة في موجبات أعمالنا وأقوالنا والجماعات لا تشن عن هذه القاعدة. لكن متى توفرت الوسائل العديدة وتمكن بها الفكر من نفس جماعة كان له قوة لا تعارضها قوة، وأنتج آثاراً متعددة لا بد من الرضوخ لحكمها. قطعت الأفكار الفلسفية التي أدت إلى الثورة الفرنساوية في سيرها نحو نفوس الجماعات ما يقرب من مئة عام، وكل يعلم مقدار قوتها الجارفة بعد أن تمكنت منها. هبت أمّة بتمامها لنيل المساواة الاجتماعية وتحقيق الحقوق المعنوية وإقامة صرح الحريات التي تنتهي إليها الآمال، فزعزعت التيجان وجعلت عالي الغرب سافله إذ تساجلت الأمم بالحروب عشرين عاماً وشهدت القارة الأوروبيّة من سفك الدماء وقتل النفوس ما ينخلع له قلب تيمورلنك وجنكيزخان، مشهد لم ير البشر قبله إلى أي حد يصل هول الفكر إذا انبثق.

وكما أن وصول الأفكار إلى نفوس الجماعات يقتضي زمناً طويلاً كذلك خروجها منها، لهذا كانت الجماعات دائمًا متأخرة في أفكارها عن الفلاسفة والعلماء، وكل رجال السياسة يعلمون اليوم ما في الأفكار السياسية المتقدم ذكرها من الخطأ، ولكنهم يعلمون أن سلطانها لا يزال متمنكاً، لذلك هم مضطرون في قيادة الأمم إلى مراعات مقتضياتها، ولما يعتقدوا بشيء من صحتها.

(٢) تعقل الجماعات

لا يمكن القول مطلقاً بأن الجماعات لا تتعقل ولا تتأثر بالمعقول، غير أن طبقة الأدلة التي تقييمها هي تأييداً لأمر من الأمور أو التي تؤثر عليها منحطة جدًا من الجهة المنطقية، فلا يصدق عليها اسم الدليل إلا من باب التشبيه.

وذلك الأدلة المنحطة مبنية على قاعدة الأساس كالأدلة الراقية، إلا أن رابطة الأفكار التي تقرنها الجماعات ببعضها من حيث المشابهة أو التلازم ظاهريّة لا حقيقة، فهي تتسلسل عندها كما تتسلسل الأدلة في ذهن الرجل الإسكيماوي الذي عرف بالتجربة أن الثلج وهو جسم شفاف يذوب في الفم، فاستنتاج من ذلك أن الزجاج وهو شفاف أيضاً يجب أن يذوب في الفم، وكالمتوحش الذي يتصور أن أكل قلب العدو الشجاع ينقل شجاعته إلى الأكل أو كالآجير الذي هضم المعلم حقه فقال بأن جميع المعلمين هضامون للحقوق.

والحاصل أن تعقل الجماعات عبارة عن الجمع بين أشياء متخالفة لا رابطة بينها إلا في الظاهر والانتقال الفجائي من الجزئي إلى الكلي، ومن التخصيص إلى التعميم بلا تزوٍ، والأدلة التي يقدمها إليها أولئك الذين عرّفوا كيف يقودونها كلها من هذا الطراز؛ لأنّها هي الأدلة التي تؤثّر فيها، بخلاف سلسلة من الأدلة المنطقية فإنّها لا تدركها بحال، لذلك صح القول بأنّها لا تعقل أو هي تتعقل خطأً، وأنّها لا تتأثر بالمعقول. وكثيراً ما يعجب الإنسان عند مطالعة بعض الخطاب من التأثير العظيم الذي أحدثته في ساميّعها على ما بها من الضعف والركاكة، وكأنّي بالطبع وقد نسي أن تلك الخطاب إنما صيغت لتأثّر في الجموع لا ليقرأها العلماء، فالخطيب الخبير بأحوال جماعته يعرف طريقة استحضار الصور التي تجذبها، فإذا نجح بذلك ما أراد، ولو أقيمت خطب في عشرين مجلد بعد ذلك ما كان لها من التأثير ما أحدثته تلك الكلمات التي دخلت في الرؤوس المراد إقناعها.

وغمي عن البيان أن عدم قدرة الجماعات على التعقل الصحيح يذهب منها بملكة النقد، أي يجعلها غير قادرة على تمييز الخطأ من الصواب، وأن تحكم حكمًا صحيحةً في أمر ما. أما الأفكار التي تقبلها هي، فهي التي تلقى إليها لا التي يناقش فيها. والذين لا فرق بينهم وبين الجماعات في هذا الباب كثيرون، وسهولة انتشار بعض الأفكار وصيورتها عامة آتية على الأخص من عدم قدرة السواد الأعظم على اكتساب الرأي من طريق النظر الذاتي.

(٣) تخيل الجماعات

الجماعات كالذوات التي لا تعقل في حدة التخييل وفعله الدائم، وفي قابليتها للتأثير الشديد، فالصورة التي تحضرها من إنسان أو واقعة أو رuze تكاد تؤثّر فيها كما لو كانت الحقيقة بعينها، وحال الجماعات أشبه بالنوم الذي تقف فيه حركة العقل هنيةة فتحضر في ذهنه صور مؤثرة جدًا، لكنها تزول بمجرد التأمل فيها. ولما كانت الجماعات لا تعرف التعقل ولا التأمل كانت كذلك لا تعرف أن شيئاً ما غير معقول، وغير المعقول هو الأشد فعلًا في النفس غالباً.

لهذا كانت الجهة الغريبة والقصصية مما يقع تحت حواس الجماعة أكبر مؤثّر فيها، وإذا دققنا النظر في حضارة ما وجدناها إنما تقوم على الغريب والقصص، كذلك التاريخ للظاهر فيه شأن أكبر من الواقع والوهمي سائد على الحقيقى.

لا تتعقل الجماعات إلا بالتخيل ولا تتأثر إلا به، فالصور هي التي تفزعها وهي التي تجذبها وتكون سبباً لأفعالها.

لذلك كان التشخيص في الملاهي من أكبر المؤثرات في الجماعات دائمًا؛ لأنه يمثل لها الأشياء في أجل صورها، فكانت عامة الرومانيين ترى السعادة كل السعادة في العيش والملهي ولا تتغيري بعد ذلك شيئاً، وقد مرت القرون وتعاقبت الدهور ولم يتغير هذا الخيال إلا قليلاً. ولا يزال التمثيل أكبر مؤثر في الجماعات من كل الطبقات، فجميع الحاضرين يتأثرون بمؤثر واحد وإن كانوا لا ينتظرون على الفور من الشعور إلى العقل، فذلك لأن الفرد منهم وإن بلغ منه عدم الالتفات للواقع ما بلغ لا ينسى أنه في عالم الخيال، وأنه إنما ضحك أو بكى متأثراً بحوادث تصورية، على أنه قد يقع أن الصورة تفعل في النفس فعل المؤثرات الحقيقية فتدفعها إلى العمل؛ إذ كثيراً ما سمعنا عن ملهمي كان يكثر من تمثيل الروايات الحزنة، فكان الحرس يحيط دائمًا بممثل الخائن الأئمّة عند خروجه خوفاً عليه من هياج المتفرجين الذين ثارت نفوسهم للانتقام منه لأنه ارتكب تلك الجرائم الوهبية. وهذا فيما أرى من أكبر الأدلة على حالة الجماعات العقلية وبالأخص على سهولة التأثير فيها، فللوهمي عليها من ذلك ما للحقيقي تقريراً وهي ميالة ميلاً ظاهراً إلى عدم التمييز بينهما.

يقوم سلطان الفاتحين وتبني قوة المالك على تخيل الأمم، ولا تنجر الجماعات إلا بالتأثير في ذلك التخيل، وكل حوادث التاريخ العظيمة كإيجاد البوزية وتشييد أركان المسيحية والإسلام وقيام البروتستانتية، والثورة فيما مضى، وكإغارة الأفكار الاشتراكية المزعجة في هذه الأيام ... إنما هي نتائج قريبة أو بعيدة لتأثيرات شديدة في تخيل الجماعات.

ذلك هو العلة في أن جميع أقطاب السياسة في كل عصر، وفي كل أمة حتى أشدّهم استبداداً اعتبروا تخيل أممهم أساساً تقوم عليها قوتهم، وما فكروا يوماً في أن يحكموا الناس بدونه.

قال نابليون في مجلس شورى الحكومة: (إنني أتممت حرب الفنديين لما تكاثلت واستولت على مصر؛ إذ استلمت وتوجت بالظفر في حرب إيطاليا لأنني قلت بعصمة البابا، ولو كنت أحكم شعباً يهودياً لأعدت معبد سليمان). ويظهر لي أنه لم يقم منذ الإسكندر الأكبر وقيصر بين عظماء الرجال من عرف كيف يكون التأثير في تخيل الجماعات مثل نابليون، فقد كان ذلك التأثير همه الدائم ما نسيه في انتصاراته وخطبه وأحاديثه، ولا في عمل من أعماله، وكان يفكر فيه وهو على سرير موته.

أما كيفية التأثير في تخيل الجماعات، فسنذكرها، وإنما نكتفي هنا بالإشارة إلى أن ذلك لا يكون أبداً بمخاطبة الإدراك والعقل، أعني بطريقة البحث والتقرير، بدليل أن (أنطوان) لم يهيج نفوس الأمة على قاتل قيسر بقوة البديع وعلم البيان، بل أثارها لما قرأ وصية المقتول وأشار بال القوم إلى جثته.

الذي يؤثر في خيال الجماعات هو ما يتمثل لها في صورة أخاذة جلية مجردة عن الشرح والذيول غير مصحوبة إلا بما فيه غرابة أو سر مكnon، كانتصار باهر، أو معجزة بالغة، أو جرم فظيع، أو أمل دونه الأمل، فينبغي أن ترمي الأشياء جملة على علاتها وأن لا يوضح كنهها أبداً؛ لأن مائة جرم صغير أو مائة رزء صغير لا تؤثر أقل تأثير في تصور الجماعات، لكن جرماً واحداً كبيراً أو رزءاً كبيراً واحداً يؤثر فيه أثراً شديداً وإن قل ضرره كثيراً عن ضرر مائة الرزء كلها، وبرهانه أن القوم كانوا لا يشعرون بضرر النزلة الوافدة التي أخذت على باريس منذ بضع سنين فأماتت من سكانها خمسة آلاف نسمة في بضع أسابيع؛ لأن هذه المقتلة لم تبد أمام الجمهور في صورة بينة، بل علموها من الإحصاءات اليومية التي كانت تنشر في حينها، ولو أن حادثاً واحداً قتل بسببه خمسمائة بدل تلك الآلاف الخمسة وكان ذلك في يوم واحد في الطريق العام، كما لو سقط برج إيفل، لتأثروا منه تأثراً عظيماً.

انقطعت أخبار إحدى بواخر الأطلنطيق فظن أنها غرفت، وكان لذلك في خيال الجماعات تأثير كبير دام ثمانية أيام، ودل الإحصاء الرسمي على غرق ٨٥٠ مركباً شرعاً و٢٠٣ مركب تجاري في سنة ١٨٩٤ وحدها، ضاع معها من الأرواح والأرزاق ما لا تقدر قيمته وما هو أكبر من قيمة تلك الباخرة بما فيها لو فقدت، ومع ذلك لم يشتغل الناس بهذه الخسارة لحظة واحدة.

نتج من هذا أن الحوادث ليست هي التي تؤثر بذاتها في تخيل الجماعات، بل المؤثر هو كيفية وقوعها وكيفية تمثيلها، أعني أنه يجب أن يتكون من مجموعها صورة أخاذة تملأ الفكر وتضيق عليه، ومن عرف كيف يؤثر في تخيل الجماعات عرف كيف يقودها.

الفصل الرابع

الصبغة الدينية التي تتكيف بها اعتقادات الجماعات

بينا أن الجماعات لا تتعقل، وأنها تقبل الأفكار أو ترفضها جملة، وأنها لا تطبق المعاشرة ولا تحتمل المناظرة، وأن المؤثرات التي تفعل فيها تحمل منها دائرة الإدراك كلها، وسرعان ما تنتقل من التأثير إلى الفعل، وأنها إذا حسن التأثير فيها تضحي نفسها فداءً للمقصد التي وجهت إليه. وكذلك عرفنا أن مشاعرها شديدة متطرفة، فالمليل عندها لا يلبث أن ينقلب عبادة، والنفور لا يكاد يدخل عليها حتى يصير سخيمة، وتلك البيانات العامة تشعر بكله اعتقاداتها.

إذا دققنا النظر في اعتقاد الجماعات أيام سيادة الأديان، أو في أزمنة الثورات السياسية الكبرى كالتي حصلت في القرن الماضي رأينا أنها تتصرف دائمًا بصبغة مخصوصة لا يسعني التعبير عنها بأحسن من تسميتها بالشعور الديني.

ولهذا الشعور مميزات بسيطة للغاية: كعبادة ذاتٍ يتوهם أنها فوق الذوات، والخوف من القوة الخفية التي تظن لها، والخضوع الأعمى لأوامرها، واستحالة البحث في تعاليها، والرغبة في نشرها، والتزوع إلى معاداة من لا يقول بها. ومتي تكيف الشعور بهذه الصفة، فهو من طبيعة الشعور الديني سواء كان محله إلهًا لا يرى أو معبوداً من الحجر أو من الشجر أو بطلًا من الشجعان أو رأياً سياسياً، فكله شعور تدخل فيه العجزات وخوارق العادات، والجماعات ترى أن في كل ما خلب لها واسترعى قلبها قوة دونها قوة البشر.

وليس المتدين هو الذي يعبد إلهًا، بل متى أسلم الإنسان عقله وإرادته وما فيه من حماسة وتعصب لخدمة مبدأ أو ذات جعلها غاية مقصوده ومرمى أفكاره وأقواله، فهو دائمًا بما توجه إليه.

ومن المعلوم أن التعصب وعدم الاحتمال يصاحبان على الدوام كل شعور ديني، ويلازمان كل من اعتقاد أنه ملك ناصية السعادة في الحياة الدنيا أو في الآخرة، وهاتان الصفتان توجدان في كل جماعة تحركت بأحد المعتقدات، فقد كان العياقة زمن (الهول) متدينين كما كان أهل الأضطهاد متدينين، ومنبع حماسة الفريقين في القسوة واحد.

كذلك تظهر معتقدات الجماعات بالخضوع للأعمى والتعصب الوحشي والإكراه في الدعوة، وكلها صفات من لوازم الشعور الديني، وما البطل الذي تهلهل الجماعة له إلا إله في نظرها. هكذا كان نابليون مدى خمسة عشر عاماً، ولم يكن لعبود سواه عباد أشد إخلاصاً من الذين عبدوه ولم يسهل على معبود قيادة النفوس إلى حتفها أكثر منه، وما كان لأنّه الوثنية والنصرانية سلطان على القلوب أعز من سلطانه.

إن جميع موجدي الديانات ومؤسسى المذاهب السياسية لم يقيموا إلا لأنّهم تمكناوا من إحداث التعصب الذي يجعل الإنسان يرى سعادته في العبادة والطاعة، ويهيئه لأن يهب حياته لعبوده. هكذا كان الحال في كل وقت وزمان، ولقد أصاب موسيو (فستان دي كولنچ) حيث قال في كتابه على بلاد الغلو الرومانية إن الدولة الرومانية لم تدم بالقهر والقوة، ولكن بما وجد في النفوس من الإعجاب بها إعجازاً دينياً قال: (ولم يرو لنا التاريخ أن دولة مكرهه من شعوبها دامت خمسة قرون، وإن لتعذر أن نفهم كيف أن ثلثين كوكبة من جند الإمبراطورية تمكناوا من قهر مائة مليون على الطاعة)، إنما أطاع القوم لأن الإمبراطور الذي كان يمثل عظمة الرومان كان يعبد عبادة الآلهة باتفاق، فكان له في كل قرية حتى الحقيقة محراب، وقد سرى في المملكة من أولها إلى آخرها دين جديد، مناسكه عبادة القياصرة. وقبل ظهور المسيحية ببعض سنين أقامت بلاد الغلو كلها، وكانت ستين مدينة، هيكلأ للإمبراطور (أوغسطس) بالقرب من مدينة (ليون)، وكان لقصوس هذا الهيكل المقام الأول في نفوس سكان تلك البلاد، ومحال أن يكون الباعث على ذلك كله الخوف أو الخنوع، فإن الخنوع لا يوجد في أمة بتمامها، ثم هو لا يدوم ثلاثة قرون، وما كانت البطانة التي هي تعبد الأمير وحدها، بل روما جميعاً، بل الغلو كلها، بل بلاد الأنجلترا واليونان وأسيا.

ليس لفاتحي النفوس في هذا الزمان معابد وهياكل، لكن لهم صور وتماثيل، والعبادة التي يعبدون بها لا تختلف كثيراً ما كانوا به يعبدون ومعرفة فلسفة التاريخ تتوقف على إجاده معرفة هذا المبحث في علم روح الجماعات. من لم يكن إلهاً لها فليس شيئاً مذكوراً.

لا يقولن قائل تلك أوهام كانت في الأعصر الماضية فبدها العقل في هذه الأيام؛ لأن العقل لم يكن لينتصر في محاربة الشعور أبداً، نعم لم تعد الجماعات تطبق اسم الألوهية، والدين الذي دانت لحكمه ذلك الزمن المدید، ولكن معبداتها لم تكثر كثرتها منذ مائة عام، وهي لم تقم للآلهة السابقين من التماشيل والمحاريب مقدار ما أقامت الآلهة هذه الأيام، والذين نقروا عن الحركة العمومية المسممة (بولنجية) التي حصلت في السنين الأخيرة يعلمون سهولة ظهور الشعور الديني في الجماعات، فلم يكن من فندق أو قهوة في قرية إلا وفيها صورة البطل، وكانوا ينسبون إليه القدرة على رد المظالم كلها ومداواة الآلام كلها. وكان الألوف من الناس على استعداد لتضحيّة حياتهم من أجله، ولو كان في أخلاقه مقوم لشهرته ولو قليلاً لناال المكان الأرفع في التاريخ.

لذلك نرى من الفضلة تكرار أنه لا بد للجماعات من دين ما دامت جميع المعتقدات السياسية أو الإلهية أو الاجتماعية لا تطمئن عندها إلا إذا ثبتت ثوب الدين الذي يحميها من الجدل و يجعلها فوق بحث الباحثين، بل لو أمكن إدخال عدم الاعتقاد في الجماعات لاشتد تعصّبهم فيه كأنه معتقد ديني، ولصار في الخارج ديناً يتبع به الناس. ومن الأمثلة الغريبة على ما نقول ما كان من أمر تلك الفتاة القليلة صاحبة مذهب الوضعيين، فقد وقع لها ما وقع للرجل العدمي (نهيلست) الذي روى لنا العلامة (رس توفيسكي) قصته، قال: أشرق ذات يوم نور العقل على ذلك العدمي، فعمد إلى صور الآلهة والقديسين التي كانت تزين أحد المعابد، وحطمتها، وأطfa الشموع، ووضع مكان الصور مؤلفات بعض الفلسفه الذين لا يعتقدون مثل (بوخر) (موليشوت)، ثم توّلاه التقى فأوقد الشموع حول هاتيك الكتب. فمحل اعتقده الديني كان قد تبدل، ولكن مشاعره الدينية ما تبدل أبداً.

وعليه لا يدرك الباحث أهم الحوادث التاريخية تمام الإدراك إلا إذا وقف على الصبغة الدينية التي ينتهي حتماً إليها اعتقاد الجماعات. ومن الحوادث الاجتماعية ما ينبغي البحث فيه على طريقة علماء النفس لا على طريقة الطبيعين، فإن مؤرخنا العظيم (تاين) لم ينظر في الثورة الفرنساوية إلا نظراً طبيعياً، لذلك فاتته حقيقة الحوادث غالباً، نعم، لم تفته من الواقع فائتة، ولكنه غفل عن البحث في روح الاجتماع فلم يصل إلى علل ما أثبت منها، وقد هالته الواقع بما اشتغلت عليه من الدماء والتلوّش والقصوة، فلم ير في أبطال ذلك الزمن الكبير إلا قطبيعاً من المتباهرين السفاحين انطلقوا وراء شهوتهم، ولم يجدوا مانعاً يصدّهم مما كانوا يشتهون.

على أنه لا سبيل لإدراك حقيقة ما كان في الثورة الفرنساوية من القسوة وسفك الدماء وال الحاجة إلى نشر الدعوة وإعلان الحرب على جميع الملوك إلا إذا فطن الباحث أنها، أي الثورة، أثر معتقد ديني جديد حل في نفوس الجماعات، ومثل ذلك أيضاً كانت قيامة الإصلاح (البروتستانتية) ومقتلة صانت بارتلمي (الاضطهاد) (الهول)، فكلها فظائع ارتكبتها الجماعات المتحمسة بشعور من شأنه أن يدفع الذي حل في قلبه إلى استعمال النار والحديد لاستئصال كل ما يعرض قيام المعتقد الجديد من دون أن تأخذ رحمة ولا حنان. لذلك كانت وسائل الاضطهاد هي وسائل جميع المعتقدين الحقيقيين، ولو أنهم استعملوا غيرها ما كانوا من الموقنين.

ولا تظهر في الوجود أمثال الانقلابات التي مر ذكرها إلا إذا قدفت من جوف الجماعة، وليس في استطاعة أكبر المستبددين إثارتها، والمؤرخون الذين رروا لنا أن الملك هو السبب في واقعة صانت بارتلمي كانوا يجهلون روح الجماعات وروح الملوك معًا؛ لأن مثل هذه المظاهرات لا تخرج إلا من قلب الجماعات ولا يقدر أكبر الملوك وأشد هم استبداداً على أكثر من تعجيلها أو تأجيلها، فليس الملوك هم الذين أحدثوا واقعة صانت بارتلمي ولا حروب الدين، كما أن (روبيسبيير) و(دانتون) و(صانت جوست) ليسوا هم الذين أحدثوا (الهول)، بل نجد على الدوام وراء هذه الحوادث روح الجماعات لا سلطة الملوك.

الباب الثاني

أفكار الجماعات و معتقداتها

الفصل الأول

العوامل البعيدة في معتقدات الجماعات وأفكارها

فرغنا من البحث في تركيب القوة المدركة عند الجماعات وعرفنا كيف تشعر وكيف تفكر وتعتقل، ونريد الآن أن نبحث في كيفية تولد آرائها واعتقاداتها وكيفية حلول هذه الآراء والمعتقدات واستقرارها في نفوسها.

العوامل التي تولد الآراء والاعتقادات في الجماعات قسمان: بعيدة، وقريبة.

فأما العوامل البعيدة فهي التي تهيء الجماعات لقبول بعض المعتقدات دون بعض، أعني أنها التربة التي تنبت فيها أفكار جديدة ذات قوة وأثر مدهشين، وظهور تلك الأفكار يكون فجأة، فقد تشبه في انباثها والعمل بها انقضاض الصاعقة، إلا أن الواقع أنها نتيجة عمل سابق طويل ينبغي البحث عنه.

وأما العوامل القريبة فهي التي تأتي بعد هذا العمل الطويل ولا أثر لها بدونه، ووظيفتها تكوين الاعتقاد الداعي إلى الفعل، أعني أنها تقوم الفكر وتقتذف به إلى الخارج مع جميع ما يحتمل من النتائج، فهي التي تدفع الجماعات فجأة إلى القيام بما تمكّن من نفسها من الأعمال، وهي علة القلاقل والاعتصابات والتلافاف الجم الغير حول رجل يرتفع بذلك إلى الأوج أو ضد حكومة تهبط إلى الدرك الأسفل.

تتعاقب هذه العوامل بقسميها في جميع حوادث التاريخ العظيمة، ففي الثورة الفرنساوية، وهي أكبر مثال لتلك الحوادث، كانت العوامل البعيدة هي كتب الفلسفه وعسف الشرفاء وتقدم العلم، وهي التي هيأت روح الجماعات، ثم جاءت العوامل القريبة مثل خطب الخطباء ومعارضة الملك في إجراء إصلاحات لا تعد شيئاً كبيراً، وهي التي أثارت الجماعات بالسهولة.

ومن العوامل البعيدة ما هو عام، بمعنى أنه يؤثر في معتقدات كل جماعة، وفي آرائها، وهي الشعب والتقاليد والزمن والنظمات وال التربية. وسنبحث في شأن كل واحد من هذه العوامل.

(١) الشعب

بدأنا به لأن له المقام الأول بين العوامل، فله وحده من الأثر ما يربو على آثارها كلها. وقد وفيتنا البحث فيه حقه في كتابنا (النوميس النفسيّة لتطور الأمم)، حتى لم يعد من المفيد أن ترجع إليه هنا إذ بينما هناك ما هو الشعب من حيث التاريخ، وكيف أنه متى كملت مميزاته يصير بمقتضي الوراثة نفسها ذا قوة عظمى، وتكون له روح ترجع إليها اعتقاداته ونظاماته وفنونه وجميع عناصر مدنية، كذلك بينما أن قوة الشعب تبلغ حدًا يتعدّر معه انتقال أحد هذه العناصر من أمّة إلى أخرى بدون أن يتغيّر تغييرًا عامًّا، وخصصنا أربعة فصول منه لشرح هذه القضية لكونها حديثة العهد. ولأنه يصعب فهم التاريخ بدونها هناك؛ يرى القارئ أنه رغم ظواهر الحال التي قد توجب اللبس يستحيل أن تنتقل اللغة أو الدين أو الفنون أو أي عنصر من عناصر المدنية من أمّة إلى أخرى إلا إذا أصابها التغيير والتحول. نعم إن البيئة والأحوال والحوادث تشخيص مقتضيات الزمن الذي هي فيه، وقد يكون لها تأثير كبير لكنه تأثير عرضي على الدوام إذا تضارب مع مقتضيات الشعب، أعني مع سلسلة تلك المؤثرات الوراثية.

على أننا سنعود إلى ذكر شأن الشعب في كثير من فصول هذا الكتاب، ونوضح أنه لقوته يسود على غيره من مميزات روح الجماعات، وأن ذلك هو السبب في اختلاف جماعات كل بلد مع جماعات البلد الآخر من جهة المعتقدات وخطّة العمل اختلافاً كبيراً، وكذلك المؤثرات التي تتأثر بها.

(٢) التقاليد

التقاليد عبارة عن ماضي الأمة في أفكارها و حاجاتها و مشاعرها، فهي تشخيص روح الشعب، ولها في القوم تأثير عظيم.

تقدّم علم تركيب الأجسام من يوم أن بَيِّنَ علم التكوين مقدار تأثير الماضي في تطور الكائنات، وسيتقدّم علم التاريخ أيضاً حينما ينتشر هذا الاكتشاف؛ لأن انتشاره لم يعم،

بدليل أن كثيراً من أقطاب السياسة لا يزالون على أفكار أهل القرن الماضي ممن كانوا يتخيّلون أنه يتيسّر للأمة أن تخلّع عن ماضيها وتنشئ نفسها من جديد غير مستهديّة في ذلك إلا بنور العقل وحده، وفاثم أن الأمة جسم منظم أوجده الماضي، فهي كغيرها من الأجسام لا تستطيع الانتقال من طور إلى طور إلا بترابك آثار الوراثة فيها على مهلٍ. والذي يقود الناس ولا سيما إذا اجتمعوا إنما هي التقاليد، وهم لا يسهل عليهم أن يغيّروا منها سوى الأسماء والأشكال.

وليس هنا مما يوجب الأسف؛ إذ لو لا التقاليد ما كان هناك شيء يقال له روح قومية ولا حضارة ممكّنة، ألا ترى أن هم الناس منذ وُجّدوا أن يكون لهم شنّشة تقاليد، فإذا زال نفعها اجتهدوا في هدمها. والحاصل أنه لا مدنية إلا بالتقاليد، ثم الرقيي موقف على هدمها. والصعوبة في إيجاد التوازن بين التقلب والبقاء، إلا أنها صعوبة كبرى، فإذا تأصلت في الأمة عادات وتمكنت منها أخلاق عدة أجيال تعذر عليها الانتقال، وأصبحت كالأمة الصينية غير قادرة على التحسن، ولا تؤثر فيها الثورات العنيفة؛ لأنها لا تأتي إلا بإحدى نتيجتين: فإما أن الحلقات التي تقطعت من السلسلة تنضم وتلتّحم ببعضها فيعود الماضي إلى التربع في سيادته بدون تغيير ما. وإما أن تبقى تلك الحلقات منثورة، فهي الفوضى وخليفتها التقهقر والانحطاط.

لذلك كان أكبر النعم التي يجب أن تصبو إليها الأمة هي المحافظة على النظمات التي ورثتها، وأن تسير في الانتقال بها من طور إلى أكمل منه على مهلٍ وبلا اهتزاز، ذلك مطلب عزيز المنازل ولم يف به إلا دولة الرومان في الأزمان الخالية، وأمة الإنكليز في الأزمان الحاضرة.

وأشد الناس محافظـة على الأفكار التقليدية وأصعبـهم مراسـاً في معارضـة من يحاول تبديلـها: هي الجمـاعات، خصوصـاً الجـمـاعـاتـ التي تتـكونـ منهاـ فـئـاتـ معـيـنةـ. وقد سـبقـ ليـ أنـ أـفـضـتـ الـكـلامـ عـلـىـ تـمـسـكـ الـجـمـاعـاتـ بـالـمـاضـيـ، وـبـيـّـنـتـ أـنـ أـشـدـ الـثـورـاتـ عـنـفـاـ لـاـ تـؤـدـيـ إـلـىـ تـغـيـيرـ فـيـ الـأـلـفـاظـ، وـمـنـ شـهـدـ فـيـ آـخـرـ الـقـرـنـ المـاضـيـ هـدـمـ الـكـنـائـسـ وـطـرـدـ الـقـسـوسـ إـلـىـ إـعـدـامـهـمـ وـالـاضـطـهـادـ الـعـامـ الـذـيـ كـانـ وـاقـعاـ عـلـىـ أـهـلـ الـكـلـكـلـةـ، كـانـ يـظـنـ أـنـ السـلـطـةـ الـدـينـيـةـ قـدـ بـادـتـ وـلـمـ يـبـقـ لـهـ أـثـرـ، لـكـنـ لـمـ يـمـضـ إـلـاـ بـضـعـ سـنـوـاتـ حـتـىـ قـامـ النـاسـ يـنـشـدـونـ مـعـابـدـهـمـ، فـاضـطـرـتـ الدـوـلـةـ إـلـىـ إـعادـةـ الـدـيـنـ الـذـيـ طـمـسـ بـالـأـمـسـ مـعـالـهـ. وـمـاـ يـوـضـحـ ذـلـكـ بـأـجـلـيـ بـيـانـ مـاـ ذـكـرـهـ (فـوـرـكـروـ)ـ أـحـدـ رـجـالـ الثـورـةـ فـيـ تـقـرـيرـهـ إـذـ ذـاكـ وـنـقلـهـ عـنـهـ (تـائـيـنـ)، قـالـ:ـ «ـإـنـ مـاـ هـوـ مـاـ شـاهـدـ فـيـ كـلـ مـكـانـ مـنـ إـقـامـةـ صـلـاةـ يـوـمـ الـأـحـدـ وـالـتـرـددـ عـلـىـ

الكنائس يدل على أن مجموع الفرنسيسين يطلب الرجوع إلى عاداته الأولى، ولم يعد في الإمكان مقاومة هذا الميل في الأمة؛ لأن السواد الأعظم في حاجة إلى الدين وإلى العبادة وإلى القسوس. ومن خطأ بعض فلاسفة العصر الحاضر – وهو خطأ وقعت أنا فيه أيضًا – القول بإمكان إيجاد تعليم عام يكفي لإزالة الأوهام الدينية. ووجه الخطأ أن في الدين سلوانًا للقسم الأول من المساكين، من أجل ذلك يجب أن تترك للأمة قسوسها ومعابدها وعبادتها.»

هكذا اختفت التقاليد برهة ثم استردت سلطانها، وهو مثل ليس كمثله مثل يبين سلطان التقاليد على النفوس، وليس الأشباح التي لا يستهان بها هي التي تسكن المعابد، ولا في القصور يقيم عترة المستبددين، أولئك يبادرون في طرفة عين. إنما الذي لا قبل لنا به هم أولئك الأرباب الذين تمكنا في النفوس، فتحكموا في الأرواح، فلا يزول ملتهم إلا بفعل الزمان رويدًا وجيلاً بعد جيل.

(٣) الزمان

أهم العوامل في المسائل الذي يبحث عنها علم الاجتماع هو الزمان، كما أنه كذلك في المسائل التي يبحث عنها علم الأجسام المنظمة، فهو الموجد الحقيقي الوحيد وهو الهادم القوي الوحيد. هو الذي كون الجبال من حبيبات الرمال ورفع الخلية الحقيقة التي اشتغلت على أصل الوجود النوعي إلى مقام الإنسان، وكل ظاهرة وكل حادثة لا تتغير ولا تحول إلا بالزمان. ولقد أصاب من قال إن النملة إذا امتد أمامها الزمن وساعها أن تجعل الجبل الرفيع مهادئاً، ولو أن موجوداً تمكن من تصريف الزمان كما يشاء لكان صاحب القوة التي يعترف بها المؤمنون للواحد الديان.

بحثنا هذا قاصر على تأثير الزمان في آراء الجماعات ومعتقداتها، وهو فيها له كذلك الأثر العظيم، فهو القاهر فوق أكبر المؤثرات الأخرى من التي لا تكون بدونه كالشعب وغيره، وهو الذي يولد المعتقدات فينميها ثم يميتها، ومنه تستمد قوتها وبفعله يتولاها الضعف والانحلال.

والزمان هو بالأخص محضر آراء الجماعات ومعتقداتها أو هو مهيء التربة التي نبت فيها، ولذلك صح وجود بعض الأفكار في زمن وامتنع وجودها في زمن آخر. وهو الذي يذكر المعتقدات بعضها فوق بعض، وكذا الأفكار، فيهبي بذلك قيام الآراء والمذاهب في العصور المتتابعة، لأنها لا تنبت صدفة ولا توجد اتفاقاً، بل إن لكل واحد منها جذوراً

تمتد في زمن بعيد، فإذا انبثقت فإنما الزمان هو الذي هيأ تفتح أزهارها، وإذا أردت أن تعرف كنها فارجع إلى ماضيها. هي بنات الماضي وهي أمهات المستقبل، وهي إماء الزمان على الدوام.

نتج من هذا أن الزمان هو صاحب السيادة الحقيقة فينا، وما علينا إلا أن نتركه يعمل لنرى كل شيء يتحول ويتبدل. نحن الآن في فزع شديد من مقاصد الجماعات التي تهددنا وما تنبئنا به من تقويض أركان الهيئة الحاضرة، ومن الانقلاب المنتظر فيها، ولكن الزمان سيتكلف وحده بإعادة التوازن بيننا. قال موسیو (لافيس): «ما من نظام يقوم في يوم واحد، بل لا بد في تقرير النظمات السياسية والاجتماعية من مرور الأعصار والأجيال، فقد بقي نظام حكم الشرفاء مضطربًا غير واضح عدة قرون حتى تبين وتأصلت له قواعد يعرفها الناس، كذلك قطعت الملوكيّة المطلقة قرونًا قبل أن تهتدى إلى الأصول المنظمة التي تدير بها حكومة البلاد، وكم من اضطراب وقع في أدوار هذا الانتقال».

(٤) النظمات السياسية والاجتماعية

لا يزال الناس يذهبون إلى أن النظمات تُقْوِّم مَعْوِجَ الهيئات الاجتماعية، وأن تقدم الأمم أثر من آثار إتقان تلك النظمات وإصلاح الحكومات، وأنه يمكن إحداث الانقلابات الاجتماعية بواسطة الأوامر والقوانين. كان هذا مذهب الثورة الفرنساوية في بدايتها، وإليه يذهب الآن أيضًا من اتخذوا مجرد الخوض في الاجتماعات مذهبًا.

ذاك وهو تأصل في الأفكار لما تبده التجارب على تكرارها، وقد ضاعت فيه متابعة الفلاسفة والمؤرخين الذين تصدوا لبيان فساده، لكنهم لم يلاقوا صعوبة في إقامة الدليل، على أن النظمات بنات الأفكار والمشاعر والأخلاق، وأن الأفكار والمشاعر والأخلاق لا تتغير بتغيير القوانين، وأن الأمم لا تخترن نظماتها كما تشتهي، كما أنها لا تملك اختيار لون أعينها وشعر رءوسها، بل إن النظمات والحكومات ثمرة الشعب الذي هي فيه، فليست هي التي تخلق زمنها، ولكنها هي التي أوجدها زمانها، وليس للأمم محكومة كما يشاء لها الهوى أنني تشاء، بل كما تشاء أخلاقها وطبعها. وكما أن كل نظام لم يستقر إلا بعد قرون عدة كذلك ينبغي لتغييره قرون عدة. وليس للنظمات قيمة نوعية في ذاتها، فلا هي حسنة لذاتها ولا هي رديئة لذاتها. وأن ما صلح منها لأمة في زمان يجوز أن يكون مضرًّا في أمة أخرى.

لهذا كان من الحق أن الأمة لا تملك كل الملك تغيير نظماتها، نعم في إمكانها أن تبدل أسماءها بواسطة الثورات العنيفة والاضطرابات القوية، لكن اللب يبقى كما كان. أما الأسماء فهي عناوين لا يلتفت إليها المؤرخ الذي ينقب عن حقائق الأشياء، لأن أكبر أمة ديمقراطية في الأرض هي الأمة الإنكليزية مع كونها تعيش تحت إمرة حكومة ملوكية، وأن أكبر أمة حفها الاستبداد هي الجمهوريات الإسبانية الأمريكية رغم نظامها الجمهوري الذي يحكمها؛ ذلك ما يعترف به للإنكليز أعظم الجمهوريين تقدماً في الولايات المتحدة. وإنني أذكر للقراء ما جاء في جريدة (فروم) الأمريكية ونقلته عنها مجلة المجلات الصادرة في ديسمبر سنة ١٨٩٤، قالت: «لا ينبغي أن ينسى الناس حتى الذين هم من أكبر أعداء الشرفاء أن إنكلترا هي أول أمم الأرض في الديمقراطية، أعني الأمة التي بلغ فيها احترام حقوق الفرد غايتها، والتي بلغ أفرادها من الحرية أعلى مقام». وبالجملة، قائد الأمم أخلاقها وطباعها لا حكوماتها، تلك قضية حاولت بيانها في كتابي السابق، وأثبتتها بأوضح دليل وأقوى مثال.

لذلك كان من العبث جدًا إضاعة الزمن في خلق نظام جديد من جديد، بل لافائدة من شد رحال علم المعاني والبيان لخلق مثل هذا النظام، فإن ذلك من عمل الجهلاء. وال الحاجة والزمان هما الكفيلان بإعداده إذا عقل الناس وتركوا هذين العاملين يعملان. هذا الذي اعتمد عليه الإنكليز السكسونيون، وهذا هو الذي يقوله لنا مؤرخهم العظيم (ماكولي) ضمن كلام يجب على أدعية السياسة في الأمم اللاتينية أن يحفظوه على قلوبهم. بدأ المؤرخ ببيان ما أحدثته القوانين الإنكليزية من الآثار الطيبة على ما يظهر بها من الرداءة والتناقض والبعد عن العقول، ثم قارن بين نظام إنكلترا والبعضعة عشر نظاماً التي اختفت بين تقلصات الأمم اللاتينية في أوروبا وأمريكا، وأوضح أن الأول لم ينله التغيير إلا على مهل جزءاً بعد جزء بتأثير الضرورة لا بتأثير النظر العلمي أبداً، ثم قال: «القواعد التي سار عليها المائتان وخمسون برلناناً من عهد حناً إلى عهد فيكتوريا في مداولاتها وقراراتها، هي أنها ما اهتمت مطلقاً بحسن التنسيق، بل كان كل هممها في الفائدة، ولم ترفع شادداً لشذوذه، ولم تأت بجديد إلا إذا تحققت أن حرجاً استوى على النفوس من أجله، ولم تجدد إلا بمقدار ما تتفادى من هذا الحرج، ولم تقرر مبدأ أعم من الضرورة التي اقتضته».

ولو أردنا بيان كون القوانين في كل أمة منتزعة من روحها، وأنه لا يمكن لذلك تغييرها عنوة وقسراً لللزم أن نأتي على كل قانون ونخوض في كل نظام، فمثلاً يجوز

الجدل فلسفياً في هل حصر السلطة وإرجاعها في النهاية إلى يد واحدة أفضل من تفريقها، أم العكس أولى. لكن إذا رأينا أمة مؤلفة من عناصر مختلفة قضت ألف عام فوصلت بعد ذلك إلى حصر السلطة وجمعها، ورأينا من جهة أخرى أن ثورة عظيمة جاءت لتحطم كل نظام ولده الزمان قد احترمت هذا الحصر وبالغت فيه؛ كان لنا أن نقول: إن هذا النظام هو ابن الضرورة التي لا مفر منها، وإنه شرط من شروط حياة تلك الأمة، وأن نرثي لحال أولئك الذين قصرت أحالمهم من السياسيين الذين يذهبون إلى وجوب إبطال ذلك النظام. ولو أن الصدفة ساعدتهم على نيل ما يبتغون وكانت نتيجة ذلك قيام حرب أهلية يستطير شررها والعودة عاجلاً إلى حصر السلطة بأشد مما هي عليه. والذي يقارن بين المنافسات الدينية والسياسية الشديدة القائمة في أجزاء البلاد الفرنساوية والناشئة على الأخص من اختلاف عناصر الأمة وبين ميل البعض إلى تجزئة السلطة وتوزيعها أيام الثورة وعقب الحرب الفرنساوية الألمانية، يتبين له أن العناصر المختلفة التي لا تزال حية في بلادنا لا تزال بعيدة عن الامتزاج والاتحاد، وأن أحسن عمل جاءت به الثورة هو حصر السلطة وجمعها وتقسيم البلاد تقسيماً اعتبارياً لا طبيعياً إلى أقسام متعددة توصلًا إلى مزج الأقاليم القديمة وخلط سكانها بعضهم ببعض. فإذا أمكن اليوم تحقيق ما يصبو إليه أولئك الذين لا يقرأون عواقب الأعمال من التجزئة والتوزيع أدى ذلك إلى اضطرابات تهرق فيها الدماء وتقتل النفوس، ولا يغفل عن ذلك إلا من نسي تاريخنا.

نتج مما تقدم أن التأثير الحقيقي في روح الجماعات لا يكون من طريق النظمات، وإذا لفتنا الذهن إلى الولايات المتحدة رأيناها ترفل في حل الرخاء وتخطر في جباب السعادة بفضل نظماتها الديمقراطية، ثم إذا رجعنا إلى الجمهوريات الإسبانية الأمريكية — ألقينها وهي متمعة بنظام مثله تتعرّ في أذيال التقهقر والفوضى، وحكمنا بأنه لا دخل لتلك النظمات لا في سعادة الأولى ولا في شقاء الثانية، وبأن الذي يحكم الأمم إنما هو أخلاقها. وكل نظام لا يندمج مع هذه الأخلاق ويمتزج بها تمام الامتزاج يكون أشبه بالثوب المستعار وهو ستار لا يدوم. نعم، قامت حروب دموية وهبت ثورات عنيفة، وستقوم حروب وتهب ثورات والغرض منها كان ويكون إلزام الأمم بنظمات يعتقد الناس أنها مجلبة السعادة كاعتقادهم في آثار الأولياء والصالحين. وقد يقال إن النظمات تؤثر في نفوس الجماعات لأنها تفضي إلى مثل تلك الحروب والثورات. وال الصحيح أن لا تأثير لها البة؛ لأننا قد عرفنا أنها لا قيمة لها في ذاتها سواء كان الغلبة لها أم عليها، وإنما الذي يؤثر في الجماعات أوهام وألفاظ، وعلى الأخص الألفاظ، تلك الألفاظ الخيالية القوية التي سنبن سلطانها.

(٥) التربية والتعليم

لكل عصر أفكار تسود فيه وإن كانت في الغالب من قبيل الخيالات، وقد بینا في غير هذا المكان ما لتلك الأفكار من القوة وما هي عليه من القلة.

ومن الأفكار السائدة في هذا العصر أن في التعليم قدرة على تغيير الرجال تغييرًا محسوسًا، وأن نتیجته التي لا يشكون فيها هي إصلاحهم، بل إيجاد المساواة بينهم. ذكروا ذلك وكرروه فصار أحد المذاهب الثابتة عند الديمقراطيين، وأصبح التعرض له من أصعب الأمور، كما كان من الصعب التعرض لسلطان الكنيسة في الزمن السابق. ولكن آراء الديمقراطيين في هذا الموضوع كما هي في كثير من الموضوعات الآخر مناقضة كل المناقضة لما أثبته علم النفس، ولما دلت عليه التجارب، فمما أثبتته الكثيرون من كبار الفلاسفة بلا عناء خصوصاً (هربرت سبنسر) كون التعليم لا يزيد في تهذيب الإنسان ولا في سعادته، ولا يغير من غرائزه وشهواته التي تلقاها بالوراثة، وأنه إذا ساء طريقه كان ضرره أكبر من نفعه. وأيد علماء الإحصاء هذه النظريات، فقالوا إن الميل إلى الجرائم يزداد بانتشار التعليم، أو هو يزداد بانتشاره على طريقة مخصوصة، وإن الداء الهيئات الاجتماعية وهو الفوضويون ينسلون غالباً إلى مذهبهم من حازوا السبق في المدارس. وأشار موسيو (ألف جيو)، وهو أحد أعلام القضاة أنه يوجد الآن في كل أربعة آلاف مجرم ثلاثة آلاف المتعلمون وألف واحد أميون، وأن عدد الجرائم زاد مدى خمسين سنة من (٢٢٧) جريمة لكل مائة ألف نسمة إلى (٥٥٢)، أعني بنسبة (١٣٣) في المائة، لاحظ أيضاً هو ورفقاوه أن الجرائم تكثر بين الشبان الذين أبدلوا تعلم المهن على يد المعلمين بتعلمها في المدارس الإجبارية المجانية.

نعم مما لا يشك فيه إنسان أن التعليم إذا حسن طرائقه ينتج نتائج عملية ذات فائدة كبيرة، فإذا هو لم يرفع درجة التهذيب ويؤثر في رقي الأخلاق، فإنه ينمي الكفاءات الفنية، ولكن من سوء الحظ أن الأمم اللاتينية أسست التعليم على قواعد غير صحيحة ولا سيما منذ خمس وعشرين سنة، ومع كون فطاحل العلماء مثل (بريا) و(فوستيل دي كولانج) و(تاين) وكثير غيرهم قد انتقدوها لا تزال تلك الأمم على خطئها فيها. وقد شرحت أنا أيضاً في كتاب لي، أصبح قديماً، أن طريقة التعليم الحالي عندنا تحول القسم الأكبر من يتلقونه إلى أداء للهيئات الاجتماعية، وتزيد كثيراً في أصحاب أشد المذاهب الاشتراكية ضرراً.

وأول خطر ينجم عن هذه التربية المسمة بحق تربية لاتينية آتٍ من بنائتها على قاعدة يحكم علم النفس بفسادها. ذلك أنهم قالوا إن الحفظ عن ظهر القلب يربى الذكاء ويقوى الفطنة، ثم انتقلوا من هذا إلى وجوب الإكثار من الحفظ ما استطاعوا، وصار المتعلم في المدرسة الابتدائية والعالية حتى الذي يتلقى علوم الأستاذية لا يعمل إلا للحفظ، وهو في ذلك كله لا يدرك مداركه ولا يمرن ملكرة الإقدام على العمل من نفسه؛ لأن التعليم في نظره ينحصر في إلقاء المحفوظ وفي الخضوع. قال موسيو (جول سيمون) وهو أحد وزراء المعارف الأقدمين: «إن حفظ الدروس عن ظهر قلب وكذا حفظ متن في النحو أو مختصر، وحسن الإلقاء، وحسن التقليد، تربية هي من الهزء بمكان، إذ كل همة يبديها المتعلم في هذه السبيل عبارة عن الاعتقاد بأن المعلم مصون عن الخطأ، وذلك لا ينتج إلا نقصاناً وضعفنا».

ولو أن ضرر هذه التربية كان قاصراً على عدم فائدتها لاكتفينا بالعاطف على أولئك الأطفال المساكين الذين يحافظون في المدرسة نسب (كلوتير) ومصارعات (نوستيري) وفصيلات الحيوان وغير ذلك، بدلاً من أن يتعلموا أشياء كثيرة آخر نافعة، لكن ضررها أكبر من ذلك، فهي تولد في نفس المتعلم سامة شديدة من حالة التي هو عليها بمقدسي نشأته، ورغبة شديدة في الانسلاخ عنها، فلا الصانع يبغي البقاء على صنعته ولا الفلاح يميل إلى الدوام في فلحته، وأقل الناس في الطبقة الوسطى لا يختار لأبنائه عملاً إلا في وظائف الحكومة. والمدرسة لا تربى رجالاً قادرين على الحياة، وإنما تخرج عملاً لوظائف ينجح فيها الإنسان دون أن يهتم بقيادة نفسه ولا أن يتقدم إلى عمل من ذاته. فهي توجد في أسفل سلم الهيئة الاجتماعية جيوشاً من الصعاليك المتعضين المتهيئين دائمًا للثورة. وفي أعلى طبقتنا الوسطى الفارغة الحذرة المغفلة التي تعتقد اعتقاداً دينياً في قدرة الحكومة وبعد إمكانها، وهي مع ذلك لا تنفك عن القدح فيها والتي تخطئ ثم توآخذ الحكومة بما أخطأ، والتي لا تقدر على القيام بعمل لا يد للحكومة فيه.

أما الحكومة التي تصنع حملة الشهادات من تلك المختصرات فلا يسعها أن تست Finch منهن إلا القليل، وتترك الباقين بالضرورة بلا عمل، فوووو بذلك بين ضرورة تغذية أولئك والصبر على عداء هؤلاء. احتشد ذلك الجمع العظيم من حملة الشهادات يحاصر جميع الوظائف من القمة إلى القاعدة، أي من الكاتب الصغير إلى المعلم فالمدير، وصرنا نرى التاجر لا يجد إلا مع الشفقة نائباً يتولى أعماله في المستعمرات. ونشاهد الآلاف من الشهادات مكتظة أمام باب كل وظيفة مهما صغرت. ويوجد الآن في مديرية

السين وحدها من المعلمين والمعلمات عشرون ألفاً لا عمل لهم ترفعوا عن المعامل والمصانع وشخصوا إلى الحكومة يطلبون القوت منها، ولما كان عدد الذين يختارون منهم قليلاً، فعدد الغضاب كثير بالضرورة، وهؤلاء مستعدون لكل نوع من أنواع الثورة والهرج تحت قيادة أي رئيس كان وكيفما كان الغرض. ذلك لأن اكتساب معارف لا يجد صاحبها سبيلاً إلى استعمالها هو من أنجع الوسائل في تهيئة المرأة إلى الخروج على أمرته.^١

ومن الواضح أن الوقت قد فات لمقاومة هذا التيار، وإنما التجارب وهي آخر مرب للآدم، ستُظهر لنا خطأنا، فهي التي تبرهن على ضرورة الإلقاء عن استعمال تلك الكتب الرديئة وإبطال هذه الامتحانات التعسفة واتباع طريقة تعليم فني عملي يرد النشاء إلى المصانع والمعامل والمشروعات الاستعمارية، وغير ذلك من الأعمال التي يجتهد أولئك النشاء في الهرب منها.

هذا التعليم الفني الذي تطلبه الآن العقول النيرة هو الذي تلقاه آباؤنا وهو الذي حافظت عليه الأمم التي تحكم الدنيا بقوّة إرادتها وبما أوتيت من الإقدام الذاتي في الأعمال، والقدرة على التصرف بالمشروعات.

كتب أحد كبار المفكرين موسسيو (تاين) صفحات في هذا الموضوع ما أجلها، وسانقل للقراء طرفاً عنها فيما يلي، فأبان بأوضح برهان أن تربيتنا في الماضي كانت تماثل التربية عند الإنكليز أو الأمريكان في الوقت الحاضر أو ما يقرب من ذلك، ثم أتى بمقارنة جميلة بين الطريقة اللاتينية والطريقة الإنكليزية، وأعرب بأفضل لسان عن نتائج الاثنين.

ولو كان الاكتساب السطحي لتلك المعارف الكثيرة وإجاده تلاوة تلك الكتب التي لا عد لها مما يرقى ملوك العقل فيها، لأجهدنا النفس لاحتمال مضار التربية التي تعودناها، ولو لم تخرج إلا عطلة ممتعضين، فهل لها هذا الأثر؟ لا، والأسف يملأ قلباً أن الإدراك والتجارب والإقدام والخلق هي عدة الحياة ولا نجاح إلا بها، وليس شيء من ذلك في الكتب. الكتب معاجم يستفيد المرأة من مراجعتها، لكن مما لا فائدة فيه نقل الفصول المطولة منها إلى الدماغ.

أما كون التعليم الفني يربي العقل بما لا ينال من التربية العلمية الجارية، فذلك ما شرحه مسيو (تاين) شرحاً وافياً إذ قال: «لا تتولد الأفكار إلا في مولدها الطبيعي الاعتيادي، والذي ينبع بذورها هو المؤثرات الكثيرة المختلفة التي يتأثر بها الشاب كل يوم في المصنع والمعدن والمحكمة ومكتب المحامي ودائرة الأشغال والمستشفى، ومن مشاهدة الآلات والعدد والأدوات، ومن العمليات، ومن اجتماع المبتاعين والفعلة، ومن

العمل نفسه، ومما يصنع رديئاً كان الصنع أو حسناً غالى الثمن أو رخيصاً. هذه هي الملتقطات الصغيرة التي تتناولها العين والأذن أو الأيدي أو الشم أيضاً التقاطاً غير مقصود، حيث تجتمع وتختمر وتأخذ لها حيزاً تنتظم فيه من نفس الشاب فترشده عاجلاً أو آجلأ إلى تركيب جديد أو تبسيط مركب أو طريقة اقتصاد، أو تحسين اختراع، والشاب الفرنسي محروم من هذا الامتزاج النفسي؛ فقد غابت عنه كل هذه العناصر السهلة التناول الضرورية في الوقت الذي هو أحوج للاستفادة منها، لأنه مقصور مدى سبع سنين أو ثمان في المدرسة بعيداً عن التجارب الشخصية السهلة القريبة المثال التي تحصل في الذهن صورة قوية صحيحة من الأشياء والناس، وتكتسب معرفة الطرق المختلفة لاستعمال ذلك كله، فضاع على تسعه من العشرة وقتهم وتعدهم مدى سنوات ما كان أنفعها وأكبر أهميتها، بل قد كانت تكون الحد الفاصل بين بؤس ماضٍ ومستقبلٍ سعيد، إليك أولاً نصف الذين يتقدمون إلى الامتحان أو الثلثين أنهم لا ينجحون، وأخرج من بين الناجحين نصفهم أو ثلثيهم، وهم الذين أبلّهم الدرس فلا يعودون يتفعون، كل فوهم بما لا يطيقون إذ طلبوا منهم يوم يجلسون على مقعد أو أمام لوحة أن يكونوا مدى ساعتين أشبه بمعجم يلقي على السامعين جملة من العلوم التي يبحث فيها عن جميع ما علم الإنسان، والواقع أنهم كانوا ذلك أو ما يقرب منه مدة ساعتين، ولكنهم لا يبقون كذلك بعد مضي شهر من الزمان، فلا يقدرون أن يجوزوا الامتحان مرة أخرى لأن معارفهم كانت كثيرة كثيفة فتسربت من عقولهم، ثم هم لا يكسبون منها جديداً، لأن الملوك ألقوا سلاحها ونضب ماء الإثمار منها. إذ ذاك يبرز الشاب وعليه مخايل الرجل التمام، وهو في الغالب الرجل الذي قد فرغ منه. هذا الرجل يجمع إليه نفسه ثم يتزوج ويوطن النفس على أن يدور في دائرة معينة، وأن يستقر على الدوران في الدائرة عينها وينزوي إلى العمل الضيق الذي أقام فيه وصار يؤديه بانتظام، ولا شيء بعد ذلك. هذه هي الثمرة في المتوسط، ولا شك في أن الوارد لا يساوي المنصرف. أما في إنكلترا وفي أمريكا كما كان في فرنسا قبل سنة 1789، فإنهم يستعملون عكس ذلك وعندهم تساوي الثمرة ما صرف أو تربو عليه.».

وبعد ذلك شرح لنا هذا المؤرخ المجيد الفرق بين طريقتنا وطريقة الإنكليز السكسونيين، فأبان أن ليس لهؤلاء من المدارس الخصوصية الكثيرة ما لنا، وأن التعليم عندهم لا يتلقى من الكتاب بل من الشيء نفسه، فالمهندس مثلًا يتكون في المصنع لا في المدرسة، وهو ما يسمح لكل واحد أن يصل في حرفته إلى الحد الذي تصل إليه قدرته

العقلية فيكون عاملاً أو رئيس عمال إذا قعد به الذكاء عند هذا القدر، وهو مهندس إذا قاده استعداده إلى هذا الدرج. تلك هي الطريقة الديمocratique المثل وفيها الفائدة الصحيحة للأمة، لا التي تجعل مستقبل المرأة كله معلقاً على نتيجة امتحان يؤديه الطالب وهو في التاسعة عشرة أو المتممة للعشرين مدة سويعات معدودة، قال موسسيو (تاين):

يدخل التلميذ والعود أخضر في المستشفى أو المعدن أو المصنع أو مكتب المشرع، فيتعلم ويقضي زمن التمرير كما يفعل كاتب المحامي أو المبدئ في الحرفة عنده، ويكون قد تلقى أولاً بعض دروس عامة مختصرة أوجدت فيه محياً تعيش فيه الملاحظات التي تعرض له من يوم دخوله، ومع ذلك يجد كل يوم بجانبه دروساً فنية يختلف إليها في أوقات الفراغ، ويتمكن بما يستفيده منها من ترتيب تجاربه وتنسيقها كلما اكتسب شيئاً منها. هذا نظام تنمو فيه القدرة العملية وتتقدم من نفسها بحسب ما تسمح به ملكات التلميذ وتسير في طريق العمل المستقبل الذي اختار التمرن عليه منذ الآن. وبهذه الواسطة يمكن الشاب بسرعة من أن ينتزع من نفسه كل ما ملكت، ويصير منذ الخامسة والعشرين وأحياناً قبل ذلك إن ساعدته كفاءته ومادته منفداً نافعاً، بل مبدئاً مقداماً مندفعاً من ذاته، فهو عجلة في الآلة، وهو أيضاً المحرك لها.

أما في فرنسا حيث سارت الطريقة الأخرى وصارت تقرب من طريقة أهل الصين في كل جيل، فإن مجموع القوى الضائعة عظيم.

ثم استنتاج ذلك الحكيم الكبير مما تقدم النتيجة الآتية التي تدل على مخالفة تربيتنا الlatine لمقتضيات الحياة مخالفة تعظم كل يوم، فقال: امتد زمن التحضير النظري في أدوار التعليم الثلاثة: الطفولية والصبا والشباب، وقد زادت المواد على حد الطاقة والتلميذ جالس على المقعد وعيناه في الكتاب انتظاراً ليوم الامتحان، يوم ينال الشهادة، يوم تتقرر الرتبة، يوم تعطى الإجازة أو الامتياز، لا انتظاراً لشيء آخر. وقد أعدوا لذلك أرداً الوسائل فأخضعوا التلميذ لنظام تأباه الطبيعة وتنفر منه دواعي الاجتماع، فأجلوا التمرين العملي وقصروا التلامذة في حجور المدارس وربوهم تربية جسمانية صناعية وشحذوا الذهن شحناً مادياً بالمواد، وأجهدوا الفكره وكلفهم فوق المستطاع غير ملتفتين إلى المستقبل ولا مهتمين بسن الرجولة ولا بالوظائف التي لا بد للطالب من القيام بها

إذا اكتمل، ولا ناظرين إلى الوجود الحقيقي الذي أضحتى على وشك الهبوط إليه، ولا بالجمع المتلاطم الذي يجب تطبيقه بطبائعه أو إخضاعه لأحكامه قبل الانطلاق فيه، ولا بالمعترك الإنساني الذي يلزم المرء فيه أن يأخذ أهبهته ويقتله عدته ويتدرب ويكتوى ليتمكن من الكفاح، ويبقى قائماً على قدميه. مدارسنا لا تُكسب الشاب هذا المتعال على ضرورته وكونه أهم ما يجب أن يقتني، لا تُكسبه ملكرة حسن التمييز ولا مكنة الإرادة ولا صلابة الأعصاب، بل على العكس من ذلك بذلاً من أن تجهزه وتهيئه، فإنها تضعفه وتبعده وجه الشبه بينه هو ومستقبله القريب المحتمم، لذلك تراه غالباً يسقط في أول خطوة يخطوها بين الناس، ويكون في بداية أمره كلما مده للعمل توراه الكمد وأخذه الخزي زماناً طويلاً، وقد يصير كالأعرج ويبقى كذلك دائماً. تجربة قاسية ذات خطر تضطرب فيها الأخلاق ويختل ميزان العقل ويخشى من البقاء هكذا على الدوام، فقد انكشف الستار وولى الخيال وعظم اليأس واشتد الأسى.^٢

كأنى بالقراء يظنون أنها قد بعدينا عن موضوعنا روح الاجتماع، لكن ما زلنا فيه لأنّه يجب علينا لمعرفة الأفكار والمعتقدات التي تتولد الآن في الجماعات أن نعرف كيف هيئت الأرض التي تنبت فيها، فالتعليم الذي يعطي الأمّة هو المرأة التي يرى فيها مصیرها يوماً من الأيام، والذي يبذل منه الآن لشبابنا يدل على مستقبل مظلم جدًا. كذلك نفوس الجماعات إنما تتحسن، أو تفسد من بعض الجهات بواسطة التربية والتعليم، لهذا وجب أن نعرف كيف هيأت الطريقة المتّبعة عندنا في التعليم روح جماعاتنا، وكيف أنها بعد أن كانت لاهية بنفسها أو لا تشتعل بغيرها تحولت إلى جيش كثيف من المتعاضين مستعد لتنفيذ ما يشير به المتهوسون أهل التخيلات أو المتفاهقون تجار الكلام، فالآن نحن نعلم أن الاشتراكيين والفووضويين يربون في المدارس، وأن فيها تحضر أوقات احاطات الأمم الالاتينية عما قريب.

هوامش

- (١) على أن هذه الظاهرة ليست خاصة بالأمم الالاتينية، بل تشاهد في بلاد الصين تكونها حكومة أيضًا بنظام قوي من «المدران»، والمدرانية تنال هناك كما هو الحال عندنا بطريق الامتحان، وهو عندهم عبارة عن تلاوة الطالب كتاباً ضخمة عن ظهر قلبه. والصينيون الآن يرون في جيش المتعلمين الذين لا عمل لهم طامة كبرى على الأمّة، كذلك الحال في الهند، فمن يوم أن فتح الإنكليز فيها المدارس لمجرد تعليم الوطنيين لا

لتربيتهم كما يفعلون في إنكلترا ظهرت فيها طائفة مخصوصة من المتعلمين يقال لهم (بابوس)، إذا لم يجدوا وظيفة انقلبوا أعداء أداء أشداء ضد الحكومة الإنكليزية، وكانت نتيجة التعليم سرعة انحطاط أخلاق جميع البابوس الذين دخلوا الخدمة منهم والذين لم يدخلوها. وقد أفضتُ الكلام عن ذلك في كتاب (تمدن الهند)، للاحظه أيضًا جميع المؤلفين الذين زاروا تلك البلاد الواسعة.

(٢) راجع تاين (النظام الحالي جزء ٢ صفحة ١٨٩٤)، وهذه الصفحات هي آخر ما كتب تاين تقريبًا، وفيها خلاصة تجارب ذلك الحكيم العظيم، ولكنني مع الأسف أرى أساتذة مدارسنا الذين لم يقيموا زمنًا خارج فرنسا لا يدركونها على أن التربية هي الوسيلة الوحيدة التي نستطيع بها التأثير في نفس الأمة. ومن سوء الحظ أنه لا يكاد أحد عندنا يدرك أن طريقة التعليم التي نجري عليها هي من أشد عوامل الانحطاط العاجل، وأنها لا ترفع قيمة نشتئنا بل تحط منه وتفسد. ومما يفيد القراء أن يجمعوا بين ما كتب (تاين) والمشاهدات المتعلقة بالتربية في أمريكا التي ذكرها موسيو (پول بورجييه) في كتاب (بحر آخر)، فقد لاحظ هو أيضًا أن تربيتنا لا تخرج إلا أواسط محدودة كفاءتهم، فلا إقدام على العمل من أنفسهم ولا إرادة فيهم أو فوضويين. قال: «وهما نموذجان تعسان للرجل المتمدن إذا خاب بانحطاط أخلاقه وعجزه، أو فقد الرشد فصار آلة هدم وتخريب». ثم جاء بمقارنة جديرة بالإمعان بين مدارسنا الفرنساوية التي هي مصانع إتلاف والمدارس التي تربى الرجل للحياة تربية تفوق الوصف، هناك يتبين الفرق بين الأمم الديمقراطية الصحيحة والتي ليس لها من ذلك إلا ما جاء على ألسنة خطبائها لا الذي رsex في عقولهم.

الفصل الثاني

العوامل القريبة في أفكار الجماعات

فرغنا من البحث في العوامل البعيدة التحضيرية التي تهيء نفوس الجماعات لظهور بعض الأميال والأفكار، وبقي علينا أن نبحث في العوامل التي تؤثر فيها مباشرة، وسنرى في الفصل الآتي كيف نستعمل هذه العوامل لنظهر آثارها كلها.

وقد بحثنا في القسم الأول من هذا الكتاب في مشاعر الجماعات وأفكارها ومداركها، ومما عرفناه يسهل علينا غالباً استنباط الوسائل التي تؤثر فيها، فنحن نعرف مما تقدم أي العوامل يفعل في تصوراتها، ونعرف قوة المؤثرات وعدها خصوصاً ما جاءها منها في شكل صور ترسم في الخيال. ولما كانت مناشئ المؤثرات مختلفة كانت العوامل التي لها قوة التأثير في نفوس الجماعات تتتنوع كثيراً تبعاً لها، لهذا ينبغي الكلام في كل واحد منها، وليس البحث غير مفيد، لأن أحوال الجماعات تشبه بعض الشبه طلاسم الأرصاد عند القدماء، فإما أن نتمكن من حل طلاسمها، وإما أن نستسلم لها فتأكلنا.

(١) الصور والألفاظ والجمل

تبين عند البحث في تصور الجماعات أنها تتأثر على الأخص بالصور. وليس الصور ممكنة في كل وقت، لكن من السهل استحضارها في الذهن بالحق في استعمال الألفاظ والجمل، ومتى كان المستعمل لها بارعاً فلها قوة السحر عند معتقديه في الزمن السابق، فهي التي تثير في نفوس الجماعات أشد صواعق الغضب، وهي التي تسكنها إذا جاشت، ولو جمعت عظام من ذهبوا ضحية الألفاظ والجمل لأمكن أن يقام منها هرم أرفع من هرم خيوس القديم.

السر في تأثير الألفاظ للصور التي تحضر في الذهن بواسطتها، وليس لذلك التأثير ارتباط بمعانيها الحقيقة، بل الغالب أن أشدها تأثيراً ما كان معناه غير واضح تماماً،

مثال ذلك كلمات: ديموقراطية، اشتراكية، مساواة، حرية ... وهكذا مما أبهم معناه ويحتاج في تحديده إلى مؤلفات ضخمة، والكل يسلم أن لها سلطاناً ينساب في النفوس لأنها اشتملت على حل المسائل الاجتماعية كلها، وفيها تتمثل الأميال اللاشعورية على اختلافها والأمل في تحقيقها.

بعض الألفاظ والجمل سلطان لا يضعفه العقل ولا يؤثر فيه الدليل، ألفاظ وجمل ينطقها المتكلم خاشعاً أمام الجماعات فلا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين وتعنوا الوجوه لها احتراماً، وكثير يعتقدون أن فيها قوة إلهية. ألفاظ وجمل تثير في النفوس صوراً لا كيف لها ولا انحصار، محفوفة بالإكبار والإعظام، إبهامها يزيد في قوتها الخفية، فهي آلة لا تدركها الأ بصار قد احتجبت خلف (المظلة) التي ترعد لهيبتها فرائص العابد إذا تقدم نحوها.

ولما كانت الصور التي تستحضرها الألفاظ مستقلة عن معانيها كانت مختلفة باختلاف الأجيال والأمم وإن اتحدت صيغها، ولبعض الألفاظ صور تتلوها على الأثر لأن الكلمة منبه إذا تحرك بربت صورته.

ومن الألفاظ ما هو مجرد عن قوة استحضار صورة ما، ومنها ما تكون له تلك القوة أولاً، ثم تبلى بالاستعمال فتقدها تماماً وتصير أصواتاً فارغة تنحصر فائدتها في إعفاء المتكلم بها من التفكير والإمعان. ومن السهل على الإنسان إذا حفظ في صغره قليلاً من الألفاظ وشيئاً من الجمل المصطلح عليها أن يجتاز الحياة بها من دون احتياج إلى إجهاد نفسه بالتفكير في أمر من أمور الدنيا.

من تأمل في لغة من اللغات وجد أن الألفاظ التي تترك منها لا تتغير مع الزمان إلا ببطء عظيم، إنما الذي يتغير على الدوام هو الصور التي تلازم تلك الألفاظ والمعنى التي تؤديها، ومن هنا قلت في بعض مؤلفاتي أن ترجمة لغة بتمامها ضرب من المستحيل، خصوصاً إذا كانت لغة أمة ميتة، ونحن إذا ترجمنا إلى الفرنساوية كلمة يونانية أو لاتينية أو سنسكريتية، أو أردنا فهم كتاب بلغتنا منذ قرنين أو ثلاثة، فذلك عبارة عن إحلال الصور والمعاني المنتزعة من حياتنا الحاضرة محل صور ومعارف مغايرة لها بالمرة، وكانت معروفة لأمم لا نسبة بين حياتها وحياتنا. نقل رجال الثورة الفرنساوية عن الرومان وعن اليونان ألفاظاً وظنوا أنهم بذلك يقلدونهم في نظماتهم، وهم إنما أثبتو للألفاظ قديمة معاني ما كانت لها أبداً، فأي شبهة بين نظمات الإغريق ونظماتنا، وإن تقابلت الأسماء. ألسنا نعلم أن كلمة جمهورية كانت تدل عندهم على نظام ساده

الشرفاء ولحمته الشرفاء، اجتمع فيه أفراد من صغار المستبددين وتحكموا في قطيع من العبيد المسرحين. تلك جمعيات أشراف قروية كان الرق قوامها، ولو لا الاسترقاق ما أاشت لحظة واحدة.

وتلك الكلمة الحرية أي شبه بين معناها الآن عندها ومعناها قديماً عند قوم لم يمر بخاطر واحد منهم طائف الحرية في الأفكار أيام كان أكبر الجرائم النادرة الوقع تطرق البحث إلى الآلهة أو القوانين أو العادات في مدينة من المدن، فكان معنى وطن عند أهل أتينا أو أهل إسبرطة تمجيد المدينة لا البلاد اليونانية؛ لأنها كانت مدائن متباضة وفي حرب مستديم، ولم يكن لها اللفظ معنى عند أهل الغلوا الأقدمين، وهم قبائل متنافرة وأجناس متغيرة، وأهل لغات متنوعة، وديانات شتى، وقهراهم قيصر بدون عناء إذ كان له من بينهم حلفاء على الدوام، وروما هي التي أوجدت وطن الغلوا بإيجادها الوحدة السياسية والدينية فيها. ما لنا ولذلك الزمن البعيد، فمن قرنين اثنين لم يكن لله الوطن في نفوس الأمراء الفنساويين ما نفهم نحن منه الآن إذ كانوا يحاربون الأجنبي على ملوكهم كما فعل البرنس كونديه، ولا في نفوس المهاجرين الذين كانوا يعتقدون أن الشرف وحفظ العهد يقضيان عليهم بمحاربة فرنسا، وكانوا يعملون بهذا الاعتقاد لأن نظام حكم الشرفاء كان يربط التابع بالتابع لا بالبلاد التي هو منها، فحيثما كان المتبع يوجد الوطن.

وما أكثر الألفاظ التي تغير معناها تغيراً كلّياً من جيل إلى جيل، ولم نعد ندرك معانيها الأولى إلا مع الجهد والمشقة، ولقد أصاب القائل بوجوب الاطلاع على كتب كثيرة للوقوف على ما كان يفهمه آباء أجدادنا من بعض الألفاظ مثل ملك وعائلة ملكية، فما بالك بغيرها مما له معنى دقيق.

نتج من هذا أن معاني الألفاظ غير ثابتة، وأنها عرضية أي وقته تتغير بتغير الأجيال وتختلف باختلاف الأمم، فإذا أردنا أن نؤثر في الجماعات لزمنا أن نعرف معنى الألفاظ عندها وقت مخاطبتها لا معناها القديم، ولا الذي يفهمه منها من يختلف معها في الفكر والمعقول.

ومن أجل هذا متى تمت الانقلابات السياسية واستقرت معتقدات مكان أخرى وتمكن بذلك نفور الجماعات من الصور التي تحضرها من بعض الألفاظ، وجب على رجال السياسة الجديرين بهذا الاسم أن يسارعوا إلى تغيير تلك الألفاظ من دون أن يتعرضوا للتغيير المسميات؛ لأن هذه مرتبطة بمزاج القوم الموروث ارتباطاً ليس من السهل تغييره.

وقد لاحظ توكيلاً من ذي بدء — وكان نقاداً — أن حيل أعمال القنصلية والإمبراطورية (في فرنسا) كان إلباً القسم الأكبر من النظمات القديمة لباً جديداً من الألفاظ، أعني الاعتياد من ألفاظ أصبحت تؤدي في الأذهان صوراً مكرورة بـألفاظ لا تشير فيها هذا التأثير لحدها، فسموا العوائد الشخصية ضرائب عقارية، والعوننة ضرائب غير مقررة ... وهكذا.

فمن أهم وظائف سواس الأمم تسمية المسميات التي صارت الجماعات لا تطبق سماع أسمائها المعروفة بأسماء مقبولة، أو على الأقل لا مقبولة ولا مكرورة، لأن قوة الألفاظ شديدة حتى إنه يكفي تسمية أشد الأشياء كراهة للجماعات بأسماء مختارة لترضى بها. ومن هنا لاحظ (تاين) أن البيعوبين تمكناً باسم الحرية والمساواة، وهم كلمتان محبوتان في زمانهما عند الناس، (من إقامة استبداد أحق به بلاد الدهومية وتأليف محكمة شبيهة بمحكمة الإضطهاد، وإحداث مذابح في الناس شبيهة بمذابح بلاد المكسيك).

فالحكام كالمحامين يرجعون فنهم إلى اختيار الألفاظ وحسن استعمالها، وصعوبة هذا الفن ناشئة من كون معنى اللفظ الواحد يختلف غالباً باختلاف طبقات الأمم الواحدة اختلافاً كبيراً، فهي وإن استعملت الألفاظ بذاتها لا تتكلم مع ذلك بلغة واحدة.رأينا في الأمثلة التي أتينا عليها أن الزمان هو أهم العوامل في تغيير معاني الألفاظ، وكذلك تختلف المعاني في الزمن الواحد اختلافاً كلّياً عند الأمم التي اختلفت في الجنس وإن تماثلت في المدنية، ومن المتعذر إدراك ذلك من لم يسبق له تطوف طويل في الأمم، فلا أطيب الكلام فيه ولكنني أشير إلى أن اختلاف المعاني واتحاد الألفاظ عند الأمم المختلفة يكون بالأخص فيما يكثر استعماله منها على لسان الجماعات مثل لفظي ديموقратية واستراكية اللذين شاع استعمالهما الآن.

الأفكار والصور التي تتحصل من هذين اللفظين تختلف اختلافاً بيّناً عند الجنسين اللاتيني والإنجليزي السكسوني، فمعنى الديمقراطية عند الأول انزواء إرادة الفرد وإقدامه على العمل من نفسه أمام إرادة المجموع وهمته، والمجموع تشخيصه الحكومة، فالحكومة هي المكلفة بإدارة كل شيء وحصر كل شيء واحتياط كل شيء وصنع كل شيء، وهي التي تلجأ إليها دائمًا الأحزاب بلا استثناء من أحجار إلى اشتراكين إلى ملكيين. وعلى الضد من ذلك يفهم الإنجلزي السكسوني وبالخصوص الأمريكي من كلمة ديموقратية نمو إرادة الفرد وإقدامه الذاتي إلى الحد الأقصى وانزواء الحكومة بقدر ما يمكن، فلا تتكلف

بعد الشرطة والجيش وال العلاقات السياسية بشيء حتى التعليم. وعليه فاللفظ الواحد يفيد في بلد جمود إرادة الفرد وسكون إقدامه الذاتي واستعلاء كلمة الحكومة، ويفيد في بلد آخر انزواء هذه وارتفاع صوت الأول.^٢

(٢) الأوهام

حضرت الجماعات منذ بزغ فجر المدينة لتأثير الأوهام، فأقامت موجديها أكثر التماشيل والهياكل والمعابد، وما من حضارة تبلغ صبحها فوق ظهر الأرض إلا وكانت تلك الملوك الهائلة في طليعة جيوشها. أريد المعتقدات الدينية قديماً والسياسية والاجتماعية في هذه الأيام هي التي شيدت هياكل الكلدان ومصر، وأقامت المساجد والبيع في القرون الوسطى، وهي التي قلبت القارة الأوروبية من الرأس إلى القدم منذ مائة عام وختمنها مطبوع في جبين كل ما أبرزه العقل من المستحدثات الفنية أو السياسية أو الاجتماعية يهدمها الإنسان أحياناً، ولكنه يعاني في ذلك هول الانقلاب العنيف، ثم هو محكوم عليه دائمًا أن يقيمه من جديد، ولولا هي ما خرج من ببرته الأولى، ولولا هي لراح مسرعاً يتخطى في أودية الخشونة والتلوّحش، نعم هي خيالات باطلة، وهي من نبات الأحلام، ولكنها هي التي ساقت الأمم إلى إيجاد ما في الفنون من رفيع وجميل، وما في الحضارة من عظيم وجليل.

قال (دانيال روزيار): لو أبى ما في دور العاديّات، أو ما في المكتبات العمومية، وكسرت فوق بلاط مماشيها جميع التحف والأثار الفخمة التي أبدعتها الفنون والأديان؛ ما بقي في العالم شيء مما ولدته الأحلام، وما كانت الآلهة والأبطال ولا الشعراء إلا لتحدث في النفوس شيئاً من الرجال وبعضاً من الخيال، إذ لا حياة للناس بغير الأمل والرجاء. حمل العلم هذه الأمانة الثقيلة خمسين عاماً ثم تغلبت عليه قوة الخيال؛ لأنّه أصبح غير قادر على الوعد بأدائه كلها عاجزاً عن الكذب إلى النهاية.

اشتد ولع فلاسفة القرن الماضي بهدم الأوهام الدينية والسياسية والاجتماعية التي عاش بها آباؤنا قروناً وأجيالاً، فلما ظهروا عليها كانوا قد سدوا أيضاً منابع الرجاء وأغلقوا باب احتمال القضاء، وبرزت من خلف الخيال الذي خفّوه قوى الطبيعة العميماء الصماء التي لا تشفع على الضعفاء ولا تحنو على التعساء.

سارت الفلسفة إلى الأمام شوطاً بعيداً، ولكنها مع تقدمها لم تهيء للجماعات خيالاً يلذها، والجماعات لا غنى لها عن الأوهام، لذلك اندفعت وراء غريزتها وذهبت إلى تجار

البلغة الذين يبيعونها تجارة حاضرة مثلها كمثل الحشرة تدب حيث يكون الضياء. إن الحقيقة لم تكن أبداً العامل الأكبر في تطور الأمم، ولكنه الباطل على الدوام. وإذا بحث عن السبب في قوة مذهب الاشتراكية في عصرنا هذا وجدته ما اشتمل عليه من الخيال الذي لا يزال حياً في العقول، فهو يعظم ويتجسم مع تزاحم أنوار العلم التي تبرهن على فساده، ذلك لأن قوته آتية من جهل دعاته بحقائق الأشياء جهلاً كافياً يجرئهم على وعد الناس بالسعادة في الحياة، والآن أصبح هذا الوهم سائداً فوق أطلال الزمن الماضي وله الملك آجلاً، فما كانت الجماعات في ظمآن إلى الحقيقة طول حياتها، وإذا تبدلت أمامها وكانت تغضبها أعرضت ونأت وراحت تعبد الأوهام التي ترضي الإمرة عليها من أضلها، والويل منها من هداها.

(٣) التجارب

التجارب هي على التقريب الوسيلة الفعالة للتقرير الحقيقة في نفوس الجماعات، وإزالة الأوهام التي عظم ضررها، إنما ينبغي أن تكون عامة ما أمكن وأن تتكرر؛ إذ تجارب جيل لا تؤثر غالباً في الذي يليه، ولذلك لا تصلححوادث التاريخية للدليل، بل تصلح لبيان أنه يجب تكرار التجارب من جيل ليكون بعض الأثر ولتيتوصل بها إلى زعزعة الوهم المتأصل في نفوس الجماعة.

ومن المحقق أن مؤرخي العصور الآتية سيكترون من ذكر حوادث هذا القرن، والذي تقدمه لاحتواها على تجارب لا مثيل لها؛ لأن الناس لم يباشروا نظائرها في زمن من الأزمان.

وأكبر هذه التجارب ثورتنا الفرنساوية؛ لأنها تدل على أننا احتجنا إلى قتل عشرة ملايين من الرجال وإضرام نار الفتنة والقلائل في أوروبا كلها مدى عشرين عاماً، لنعرف أن الأمة لا تخلق خلقاً جديداً بإرشاد العقل وحده. وقمنا بتجربتين منهكتين في خمسين عاماً لثبتت من طريق التجربة أن القياصرة تكلف الأمم التي تمجدها كلفة باهظة، ومع أنهما كانتا مشرقتين باللحجة على ما أرادوا يظهر أنهما لم تعتبرا كافية للإقناع، والأولى اقتضت بضعة ملايين من النفوس وغارة أجنبية على البلاد، والثانية أدت إلى سلخ إقليم عنها وضرورة إيجاد جيش مستديم مع ذلك، وكانت الثالثة على الأبواب من عهد قريب، وهي واقعة لا محالة يوماً من الأيام، وبالجملة كان لا بد من تلك الحرب الهائلة التي استنزفت ثروتنا لكي تفلع الأمة كلها عن الوهم بأن الجيش الألماني العرم لم يكن إلا عبارة عن حرس ملي^٢ لا خوف منه كما كانوا يوحون به عندنا منذ ثلاثين عاماً.

ولو أردنا أن نبرهن للأمم التي تعمل بمذهب حماية التجارة الوطنية لتقيد التجارة الأجنبية، للزمتنا القيام بتجارب ضارة بثروتنا مدة عشرين عاماً، ومن السهل الإكثار من الأمثلة على ما تقدم.

(٤) العقل

لولا الحاجة إلى بيان أن لا تأثير للعقل في الجماعات ما احتجنا إلى ذكره بين العوامل التي تؤثر فيها؛ لأننا قدمنا أن البراهين والأدلة لا تأخذ من نفوس الجماعات، وأنها لا تعقل إلا بالمشابهات الرديئة. ولهذا فإن الخطباء الذين عرّفوا كيف تتأثر إنما يخاطبون شعورها دون العقل، لأنه لا سلطان لقواعد المنطق عليها، فلأجل إقناع الجماعة ينبغي الوقوف أولاً على المشاعر القائمة بها والتظاهر بموافقتها فيها، ثم يحاول الخطيب تعديلها باستعمال مقارنات بسيطة عادية تشخص أمامها صوراً مؤثرة، وينبغي أن يكون مقدراً على الرجوع القهقرى متى وجد المقتضى، وأن يتغرس في كل لحظة أثر كلامه في نفس سامعه حتى يغير منه كلما مسّت الحاجة، وهذه الضرورة التي تلجم الخطيب إلى سرعة تغيير الكلام بحسب الأثر الحاصل في نفس السامع، هي التي تدلنا على ضعف الخطابة بالكلام المحضر من قبل، لأن الخطيب يتبع في هذه الحالة سلسلة أفكاره لا حركة فكر ساميّه، فلا يكون لكتابه أقل تأثير عندهم. أما المناطقة فلأنهم تعودوا الاقتناع بالأدلة المتسلسلة الدامغة لا يمكنهم الخروج عن عادتهم هذه في مخاطبة الجماعات، لذلك يدهشهم على الدوام عدم تأثير استدلالهم، قال بعض هؤلاء المنطقيين: «إن للقياس المنطقي، أعني الجمع بين الشيء ونظيره، في الاستدلال نتيجة لازمة لا تختلف عنه، وهذا اللزوم يقتضي التسليم حتى من الماء لو أن فيها قدرة على أن تتمثل في النظائر»، وهو مسلم غير أنه لا فرق بين الجماعة والمادة في عدم إدراك النظائر، بل في عدم القدرة على سماعها، ومن لم يصدق فليجرِب إقناع الهمجي أو المتوهش أو الصبي بالحجة العقلية والدليل المنطقي، وهو يقتئن بضعف تأثير هذه الطريقة في إقناعهم.

على أنه لا داعي للتجربة في الهمجي لمعرفة عدم تأثير الأدلة العقلية متى عارضت الشعور، ويكفيانا أن نذكركم من القرون أمسكت الأوهام الدينية بالعقلون على ما بها من مخالفة قواعد المنطق الابتدائية، وأن أكبر الناس عقلاً وأسماهم فكراً أتوا تحت حكمها ألفي عام وبقي الحال هكذا حتى جاء هذا الزمان وأمكن البحث في صحتها. ولقد كان أصحاب العقول النيرة كثرين في القرون الوسطى، وزمن النهضة الفكرية، ومع ذلك

ليس منهم من هدته الحجة وأرشده الدليل إلى ما كان في الأوهام التي استولت على قلبه من الهراء والشطط، أو شك يوماً في صحة إساءة الشيطان، أو في ضرورة إحراق الساحرين.

رب سائل أمماً يوجب الأسف أن العقل ليس هو الذي يهدي الجموع على الدوام، نحن لا يسعنا أن نقول به، بل نرى أنه لو كان الهوى للعقل ما اندفعت الإنسانية في سبيل المدنية والحضارة بالهمة التي أوجتها الخيالات والأوهام، فليس لنا غنى عن الأوهام لأنها نبات الغرائز.

كل شعب يحمل في كيانه العقلي نواميس مآلاته في الوجود، والظاهر أنه يسير محكوماً بتلك النواميس، وأنه ينقاد لحكمها بفطرة لا مقدور له فيها حتى في نزعاته التي يرى أنها خارجة عن كل معقول، كذلك يظهر أحياً أن الأمم مدفوعة بقوى خفية مثل التي تجعل بذرة البلوط شجرة كأها، أو التي تدور بها (ذوات الأذناب) في دائرتها.

على أنه لا يسعنا أن نعرف إلا قليلاً من تلك القوى، وذلك بالبحث عنها في حركة تطور الأمة العمومية لا في الحوادث الفردية التي يخال أنها سبب ذلك التطور، إذ لو قصرنا النظر على هذه الحوادث لظهر أن التاريخ يتكون من مصادفات غير معقولة بالمرة، فلقد كان مما لا يصدقه العقل أن نجراً جاهلاً هو (غاليليه)^٠ يصيير مدة ألفي عام كإله جلت قدرته يؤسس باسمه أهم أركان المدنيات في الدنيا. وكان مما لا يصدقه العقل أن عصابات من العرب تنخلع من صحاريها وتتبسط فتوحاتها على القسم الأكبر من الدنيا القديمة التي عرفها اليونان والروماني وتختلط مملكة فاقت ضخامتها مملكة الإسكندر. كذلك كان مما لا يتصوره العقل أن يقوم ضابط صغير في أوروبا التي لها قدم راسخة في التاريخ وأهلها طبقات منظمة ببعضها فوق بعض، ويتمكن من السيادة على جميع أولئك الملوك وتلك الأمم.

إذن لندع العقل للحكماء ولا نطلب منه أن يتداخل كثيراً في حكم الأمم، فما بالعقل، بل على الرغم منه في غالب الأحيان تولدت مشاعر مثل الشرف وإنكار الذات والإيمان بالدين وحب المجد والوطن، وهي الصفات التي كانت ولا تزال أقوى دعائين المدنيات كلها.

هواش

- (١) الحكومة هنا عبارة عن مجموع السلطات التي بيدها زمام الأمر في البلاد.
- (٢) شرحت القول بإسهام في كتابي (ناموس تطور الأمم النفسي) على الفرق بين الديمقراطية عند الأمم اللاتينية والأمم السكسونية، وجاءت نتيجة بحث موسیو (بول بورجيه) في كتابه (بحر آخر) مطابقة على التقرير لما ذكرت وإن كان بحثه مستقلاً بذاته.
- (٣) كان رأي العامة في هذا الموضوع مبنياً على اجتماع النقيضين في ذهنهما لما فصلناه من قبل، فكان حرسنا الملي في ذلك الزمن مؤلفاً من صغار الباعة أهل الدعة الذين لا يعرفون للنظام معنى، ولا يمكن لذلك الاعتداد بهم، فكان كل مسمى باسم كهذا يرتسם في الذهن على الصورة التي عرفها من قبل، ولا يتوجس الناس منه خيفة، وكان خطأ الجماعات متعدياً إلى قوادها كما يقع ذلك غالباً بالنسبة للأفكار العامة، فقدرأينا موسیو (تيرس) يقول ما يأتي ضمن خطابه الذي ألقاه على مجلس النواب في ١٣ ديسمبر سنة ١٨٦٧، ونقله موسیو أوليفيه في كتاب نشره حديثاً، وكان ذلك القطب السياسي يتبع دائماً أفكار الجماعة إلا أنه لم يسبقهم في فكر أبداً؛ قال ناقلاً: «ليس لبروسيا غير جيشها العامل المساوي لجيشنا على التقرير إلا حرس ملي يشبه الحرس الذي كان لنا، وعليه لا أهمية له»، وهي رواية تبلغ صحتها ما بلغه رأي السياسي في ضعف مستقبل السكك الحديدية.
- (٤) ترجع ملاحظاتي في فن التأثير في الجموع وضعف قواعد المنطق في هذا الموضوع إلى زمن حصار (باريس)، رأيت ذات يوم أناساً يسوقون أحد قواد الجيش العظام إلى سراي اللوفر حيث مقر الحكومة، والناس أكداس من حوله يزملرون ويتميزون غيطاً وهم يتهمونه بأنه كان يأخذ رسم أحد المعامل ليبيعه للبروسزيانين، فلما وصلوا به خرج أحد أعضاء الحكومة وكان خطيباً ذائع الصيت ليخطب في الناس، وهم ينادون الموت الموت عاجلاً، وكانت أنتظر منه أن يبرهن لهم على فساد التهمة بقوله إن الفريق المتهم هو أحد المهندسين الذين أقاموا الحصون، وأن رسومها تباع في المدينة عند جميع باعة الكتب، غير أنني بهتُ – كنت شاباً في ذلك الحين – إذ سمعته على نقيض ما ظنتت يقول وهو يتقدم نحو الجموع: «سيأخذ منه العدل أخذًا لا رحمة فيه فاتركوا حكومة الدفاع عن الأمة (هو اسم الحكومة في ذلك الحين) تتم التحقيق الذي بدأتموه، وسنزعجه في السجن حتى حين»، قال هذا، فرأيت الثورة قد سكتت وتفرق الجمع، ولم

يمض ربع ساعة إلا والفريق في داره، ولو أنه خاطبهم بما جال بخاطري من الأدلة المنطقية التي اعتقدتها دامغة لمزقه إرباً.
كذا في الأصل لأنه ولد سنة ١٥٦٤ وتوفي سنة ١٦٤٢. (٥)

الفصل الثالث

قود الجماعات وطرقهم في الإقناع

نحن الآن نعرف تركيب الجماعات الفكرية والعوامل التي تؤثر في نفوسها. بقي علينا أن نذكر كيفية استعمال هذه العوامل، ومن الذي يمكنه استعمالها استعملاً مفيداً.

(١) قواد الجماعات

ما اجتمع عدد من الأحياء سواء كان من الحيوان أو من بني الإنسان إلا جعل له بمقتضى الفطرة رئيساً.

والرئيس في الجماعات البشرية عبارة عن قائد في الغالب إلا أن له بذلك شأنًا كبيراً تجتمع الأفكار وتتحد حول إرادته، وهو الركن الأول الذي يقوم به نظام وحدة الجماعات ويهيئها لأن تصير طائفة خاصة.

والعادة أن القائد يكون قبل ذلك مقوداً: أعني أنه كان مسحوراً بالفكرة التي صار هو الداعي إليها حتى استولت عليه استيلاء لا يرى معه إلا ما كان منها، وأن كل ما خالفها وهم وباطل، كما جرى للزعيم (روبسبيير) أسكرته أفكار (روسو) فقام يدعوا إليها، واستعمل الضطهاد وسيلة لنشرها.

ليس القواد غالباً من أهل الرأي والحسافة، بل هم من أهل العمل والإقدام، وهم قليلو التبصر. على أنه ليس في قدرتهم أن يكونوا بصراء؛ لأن التأمل يؤدي غالباً إلى الشك ثم إلى السكون، وهم يخرجون عادة من بين ذوي الأعصاب المريضة المتهوسيين الذين اضطربت قواهم العقلية إلى النصف، وأمسوا على شفا جرف الجنون؛ لا ينفع الدليل على فساد ما اعتقادهم كيما كان معتقدهم باطلًا، ولا تثنיהם حجة عن طلب ما قصدوا

بالغاً منه الخطل ما بلغ، ولا يؤثر فيهم الاحتقار ولا الاضطهاد، بل ذلك يزيدهم تهوساً وعناناً؛ حتى إنهم يفقدون غريزة المحافظة على النفس فلا يبتغون في الغالب أجرًا على عملهم إلا أن يكونوا من ضحاياه. تزيد شدة اعتقادهم في قوة تأثير أقوالهم، والجماع تتصغر دائمًا إلى قول ذي الإرادة القوية الذي يعرف كيف يتسلط عليها. وممّا صار الناس جماعة فقدوا إرادتهم والتقوّل كلهم حول من كان له شيء منها.

وقد القواد في الأمم على الدوام، غير أنهم ليسوا جميعاً من أهل الاعتقاد الصادق الذي يصير به المرء رسولاً في قومه، بل هم في الغالب قوالون سوفساتائيون لا يسعون إلا وراء منافعهم الذاتية فيتملّقون ذوي المشاعر السافلة ليكتسبوا رضاهما، وقد يكون النفوذ الذي ينالونه بهذه الوسائل كبيراً جدًا إلا أنه سريع الزوال. أما أصحاب العتقدات الصحيحة الذين تمكّنوا من نفوس الجماعات وحركوها مثل (بطرس الراهب) و(لوثر) و(سافنارول) ورجال الثورة الفرنساوية وغيرهم، فإنهم لم يتمكّنوا من خلب العقول وأجتذاب الأرواح إلا بعد أن سكروا بخمر المذهب الذي اعتقادوه. وبذلك توصلوا إلى توليد تلك القوة الهائلة في النفوس، وهي التصديق الذي يجعل المرء عبداً لخياله.

كان عمل قواد الجموع على الدوام خلق الاعتقاد في النفوس لا فرق بين أن يكون دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً، ولا أن يكون محله عملاً أو إنساناً أو رأياً. بهذا كان تأثيرهم عظيماً جدًا؛ لأن الإيمان أكبر قوة في تصرف الإنسان، وقد صدق الإنجيل في قوله إنه يزحزح الجبال عن مواضعها، فمن كان مؤمناً زادت قوته عشر أمثالها، والذي قام بأكبر حوادث التاريخ أفراد من الضعفاء المؤمنين الذين لم يكن لهم من الحول إلا الإيمان، وليس المستبدون ولا الفلسفه ولا أهل البأس على الأخص هم الذين أقاموا الأديان الكبر التي سادت على الدنيا، واحتلوا المالك الشاسعة التي امتدت فوق السطحين.

غير أن الأمثلة التي ذكرناها تختص بقواد عظام يندر ظهورهم، فمن السهل على التاريخ حصرهم، وهم رأس سلسلة تتبعها من أولئك القواد العظام إلى العامل الذي يقف في قهوة أطبق الدخان في سمائها ويسترعى أسماع أخوته وهو يلوك صيغاً حفظها من دون أن يدرك معانيها، ولكنه يؤكد أن في العمل بها تحقيق جميع الأماني والأمال.

لا يلبث الإنسان أن يقع تحت حكم قائد يتبعه كلما خرج عن العزلة إلى الجماعة، ذلك أمر واقع في جميع الطبقات أرقاها وأدنها، فأماماً أفراد طبقة العامة فإن الواحد منهم متى خرج عن حرفته أو مهنته لا تجد عنده فكراً واضحاً في أمر من الأمور، وكلهم كفاء لقيادة ذاته، ومرشدتهم هو القائد، وربما أمكن الاستعاضة عنه بتلك الصحف

الدورية التي تصنع لقرائها أفكاراً وتحصل لهم جملة مصوغة تغنيهم عن التفكير، إلا أن البديل لا يقوم مقام الأصل تماماً.

من لوازم سلطة القواد أن تكون مستبدة، على أن استبدادهم هو علة سيادتهم، وقد لوحظ كثيراً أن فيهم مقدرة على إطاعة طبقات العمال الذين هم أشد عربدة وأصعب مراساً مع تجدد أولئك القواد من كل شيء يستندون عليه في سلطتهم، فهم يحددون ساعات العمل ويقررون الاعتصابات وينفذونها بميقات ويفضلونها بميقات.

قواعد هذه الأيام صائرون إلى الحلول مكان السلطات الحاكمة، كلما تركت هي الناس يبحثون فيها ويضعفون من نفوذها وتعسف المولى الجديد وظلمه يجعل الجماعة تطيقه بسهولة أكثر مما أطاعت حكوماتها، وإذا حدث حادث احتفى بسببه القائد ولم يول الخلف على الأثر تصبح الجماعة جمهوراً مفكك الأجزاء، ولا قدرة فيها، فلما اعتصب عمال شركة الأمينيوس اعتصابهم الأخير في باريس وقبض على الرئيسين اللذين كانوا القائدين بطل الاعتصاب ل ساعته، إنما الحاجة التي يشتغل شعور الجماعة بها هي الخضوع لا الحرية.

وقد بلغ منها الظلم إلى الطاعة أنها تخضع بفطرتها لكل من ادعى السيادة عليها. تنقسم القواد إلى فريقين ممتازين، فقواعد ألوى عزم وإرادة قوية لكنها وقتية، وقواعد نزوء إرادة جمعت بين القوة والدوار وهؤلاء قليلون، والفريق الأول أصحاب حدة ونزع وشجاعة وإقدام، وهم على الأخص نافعون في تنفيذ ما دبر أو كسب الجموع بلا خوف من الخطر، وفي جعل الجبان بطلاً مغواراً ذلك مثل (ناري) (مورات) زمن الإمبراطورية الأولى، ومثل (غاريبالدي) في عصرنا هذا، فإنه كان رجلاً هجواماً لا ذكاء فيه، لكن ذاته عزم ومضاء، وبذلك تمكن مع نفر قليل من الاستيلاء على مملكة (نابولي) القديمة على رغم الجيش المنظم الذي كان يحميها.

عزيمة أولئك القواد على قوتها قلما تبقى بعد زوال السبب الذي دعا إليها، وكثيراً ما يبرهن الذين تجلموا بها على ضعف مدحش متى عادوا إلى حياتهم الاعتيادية كالذين ذكرناهم، فتراهم لا يستطيعون التصرف في أصغر الحوادث مع كونهم كانوا ماهرين في تصريف غيرهم، أولئك قواد لا يمكنهم القيام بوظائفهم إلا إذا كانوا أنفسهم مقودين، وكان لهم مهيج على الدوام، واستولت عليهم يد أو فكر من الأفكار وساروا في طريق مرسوم من قبل. أما الفريق الثاني من القواد وهو ذوو الإرادة الثابتة، فإن تأثيرهم أعظم بكثير وإن كانوا أقل ظهوراً في الشكل، وهم الذين نبغ من بينهم أصحاب الأعمال الكبيرة

كالقديس (بولص) ومحمد ﷺ و(كريستوف كولومب) و(دولسيس)، وسواء كان قواد هذا الفريق من الأذكياء أو الأغبياء لهم الدنيا أبد الآبدية، لأن الإرادة الثابتة التي اتصفوا بها ملكة نادرة الوجود لكنها قوية يخضع لها كل شيء، إلا أن الناس لا يدركون دائمًا ما عسى أن يكون من وراء الإرادة القوية المستمرة، فالذي يكون من ورائها هو أنه لا شيء يقف أمامها، حتى الطبيعة حتى الآلهة حتى الرجال.

وأقرب الأمثال على ما تأتي به الإرادة القوية الثابتة هو ذلك الرجل العظيم الذي فصل الدينين، وأنجز عملاً قصرت عنه همة أكبر الملوك منذ ثلاثة آلاف عام، نعم، لم ينجح بعد ذلك في عمل يضارع هذا العمل، لكن الشيخوخة كانت قد أدركته، وكل شيء ينطفئ أمامها حتى الإرادة.

من أراد بيان ما تأتي به الإرادة وحدها فما عليه إلا أن يذكر العقاب التي ذلت لفتح قناة السويس، وقد لخص الدكتور (كزاليس) وهو من شهود الحال في أسطر تسحر الألباب تاريخ ذلك العمل المجيد نقلًا عن صاحبه الذي خلد التاريخ ذكره فقال: «كان — يعني دليس — يقص علينا حيناً فحياناً حوادث القناة مرحلة بعد أخرى، فحكى لنا ما لاقى من الصعب التي ذلّلها، وكيف جعل المستحيل ممكناً، وروى المقاومات التي صادفته والتحزبات التي اعترضته واليأس الذي كان قد استولى على قلبه والخيبة التي كان يؤوب بها، وكيف أن ذلك كله لم يكن ليثنى عزيمته، ولا ليضعف من إرادته. وكان يذكر إنكلترا وهي تحاربه وتحمل عليه الحملة بعد الحملة، وفرنسا ومصر متربّتان والعميد الفرنسي أشد الجميع معارضة في البدء بالعمل. حتى إنه لما رأى عدم الامتثال أنحى على العمال بالعطش، فسعى فمنع عنهم الماء الفرات. ولا تننس أن ناظر البحريّة وفريق المهندسين والناس من رجل الجد وذي الخبرة وصاحب العلم كلهم خصماء وكلهم مقتنعوا، علمًا بأن الخيبة محتمة يحسّبون سيرها ويجددون يوم حلولها كما ينبع بالكسوف أو الخسوف».

إن الكتاب الذي يضم سيرة أولئك القواد العظام لا يكون فيه عدد كثير من الأسماء، لكن تلك الأسماء هي التي كانت على هامة أكبر حوادث الحضارة والتاريخ.

(٢) وسائل القِوَادِ فِي التأثير

التوكييد والتكرار والعدوى

إذا مسَت الحاجة إلى قيادة جماعة وحملها على عمل من الأعمال كإحراق قصر أو الاستماتة في الدفاع عن حصن أو معقل، وجب التأثير فيها بخواطر سريعة. والأمثلة أشد ذلك تأثيراً في نفوسها إلا أنه يجب أن تكون هناك أحوال جعلتها مستعدة للتأثير، وأن يكون من يريد تحريكها حائزاً للنفوذ، وسيأتي الكلام فيه.

لكن إذا كان الغرض بث أفكار في عقولها أو معتقدات في نفوسها كالأفكار الاشتراكية العصرية، فالوسائل غير ما تقدم وأخص ما يستعمله القِوَاد منها ثلاثة: التوكيد، والتكرار، والعدوى، ولذلك تأثير بطيء، إلا أنه متى انبث فيها المطلوب لزمهها زمناً طويلاً.

فأما التوكيد فإنه من أهم العوامل لبث الفكر في نفوس الجماعات متى كان بسيطاً خالياً من التعقل والدليل، وكلما كان التوكيد موجزاً ومجرداً عن كل ما له مسحة الحاجة والتقرير كان عظيم التأثير، هكذا اعتمدت الكتب الدينية وقوانين جميع القرون على مجرد التوكيد، فال TOKID قيمة يعرفها أهل السياسة الذين يريدون الدفاع عن عمل سياسي، وأهل الصناعات الذين يروجون بضاعتهم بالنشر عنها.

إلا أن قيمة التوكيد هي بدوام تكراره بالألفاظ عينها ما أمكن ذلك. وأظن أن نابليون هو القائل بأن أهم صيغ البيان التكرار، فإذا تكرر الشيء رسخ في الأذهان رسوحاً تنتهي بقبوله حقيقة ناصعة.

للتكرار تأثير في عقول المستثيرين وتأثيره أكبر في عقول الجماعات من باب أولى. والسبب في ذلك كون المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان، فإذا انقضى شطر من الزمن نسي الواحد مما صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرر. وهذا هو السر في تأثير الإعلانات العجيبة. يقرأ الواحد مائة مرة أن أحسن الحلوي ما كان من صنع زيد فيخيل إليه من التكرار أنه سمع ذلك من مصادر شتى وينتهي باعتقاد صحة الخبر، ويقرأ ألف مرة أن دقيق فلان شفى أعظم القوم من مرض عossal، فيميل إلى التجربة أن أصيب بمثل المرض المذكور، ويقرأ كل يوم في الصحف أن زيداً من الأنذال وعمراً من الفضلاء، فينتهي باعتقاد ذلك إلا إذا كان يقرأ دائماً في جريدة أخرى ما يخالفه، فإنه لا يفل التكرار إلا التكرار.

ومتى كثر تكرار أمر وأجمع المكررون عليه تولد من عملهم تيار فكري يتلوه ذلك المؤثر العظيم، أي العدوى، كما وقع ذلك في بعض المشروعات المالية الشهيرة التي تمكّن أصحابها بثروتهم من كسب كل قادر على معاونتهم؛ لأن للأفكار والمشاعر والتآثرات والمعتقدات عدوى في الجماعات تماثل في قوتها عدوى المicroبات، وذلك أمر طبيعى لوجوده في الحيوانات متى اجتمعت، فالفرس يقع في مربطه فتفعل فعله الخيل كلها، وتجزع الشاة أو تضطرب في حركتها فتفعل الغنم مثلها، كذلك لحركات الإنسان في الجماعة عدوى سريعة جدًا، وهذا هو السبب في سرعة انتزاع الكل لفزع الواحد بينهم، حتى إن اختلال القوى العقلية معدٍ وكثير ما هم أطباء المجانين الذين جنوا، وشاهد بعضهم نوعاً من الجنون تنتقل عدواه من الإنسان إلى الحيوان.

ولا يجب في العدوى وجود الأفراد الكثرين في مكان واحد، بل يجوز أن تحصل عن بعد من الحوادث التي تتحد لأجلها وجهة أفكار المتأثرين بها فتجعلهم بذلك كالجماعة لا سيما إذا كانت النفوس مهيأة من قبل بأحد العوامل البعيدة التي مر ذكرها. ذلك ما كان من ثورة سنة ١٨٤٨، فإنها بدأت في باريس وما عتمت أن امتدت إلى قسم كبير من أوروبا، وهزت أركان كثير من المالك.

قالوا إن لحب التقليد تأثيراً كبيراً في الناس، وليس التقليد إلا أثراً بسيطاً من العدوى، وقد بيّنت أثر التقليد منذ خمس عشرة سنة في غير هذا الكتاب، فأكتفي بإيراد ما قلته إذ ذاك مما شرحته بعد ذلك الكتاب حديثاً:

الرجل شبيه بالحيوان يميل بطبيعة إلى التقليد، فالتقليد من حاجاته على شرط سهولته، وهذه الحاجة هي التي تجعل للبدئ (المودة) تأثيراً كبيراً، والقليل من الناس لا يقلد سواء كان ذلك في الأفكار أو الآراء أو الأدبيات أو اللباس، لأن الذي تقاد به الجماعات هو المثال لا البرهان، وكل عصر أناس قليل عددهم يستحدثون البدئ فيقلدهم أبناء عصرهم فيها، وإنما يشترط أن لا يبتعد المبتدع كثيراً عن المألوف حتى لا يصعب التقليد فيضعف تأثير المبتدع، ولذلك لم يكن للذين فاقوا عصرهم من كبار الرجال تأثير في قومهم إلا نادراً وبعد البون بينهما، ومن هنا قل تأثير الأوروبي في الشرقي مع ما للأول من المزايا المدنية، لأن الخلف شديد بين الرجلين.

يتشابه أهل كل عصر في أمة بتأثير الزمن وتبادل التقليد، حتى الذين يخيل أنهم متفاوتون، كالحكماء والعلماء والأدباء، فإنك ترى على أفكارهم

وما يكتبون صبغة عشيرة واحدة تدلّك في الحال على أنهم أبناء عصر واحد، ولا يلزم أن يطول الحديث مع رجل لمعرفة الدرس الذي يصبو إليه والعمل الذي اعتاده، والبيئة التي يختلف إليها.^١

ويبلغ تأثير العدوى إلى حد أنه يتعدى توحيد الأفكار إلى توحيد كيفية التأثير بالحوادث، فالعدوى هي التي تُنفر من الشيء في وقت من الأوقات ثم تُرْغب فيه ثانية من كان أشد الناس بغضًا له كما وقع في (تانها وزر).^٢

والعدوى هي الأصل في انتشار أفكار الجماعات ومعتقداتها لا الحجج والبراهين، ففي الخمارة تتولد أفكار الفعلة من طريق التوكيد والتكرار والعدوى، وقليلًا ما تولدت أفكار الجماعات في كل عصر من غير هذا الطريق. وقد أصاب (رنان)^٣ إذ شبه مؤسسي النصرانية الأولين «بالفعلة الاشتراكيين الذين ينشرون مبادئهم من خمارة إلى أخرى»، وقال فولتيير^٤ قبل ذلك بالنسبة للديانة المسيحية: «إنها استمرت لا يدين بها إلا أخسن الناس مدة مائة عام».

ويؤخذ من الأمثلة المتقدمة أن العدوى في مثل تلك الأحوال تبدئ في الطبقات النازلة ثم تصعد منها إلى الطبقات الرفيعة. ونحن الآن نشاهد هذه الظاهرة في مذهب الاشتراكيين، لأنه بدأ يمتد بين الذين يحال أنهم سيكونون أول ضحاياه، لكن قوة العدوى شديدة بحيث يضعف أمامها أثر المنافع الذاتية.

هذا هو السبب في أن الفكر إذا انتشر بين طبقات العامة لا بد له من الانتشار أيضًا بين طبقات الأمة إلى أرفعها وإن كان فاسدًا بعيدًا عن الصواب. وهنا رد فعل يشرئب من الطبقات الدنيا إلى الطبقات العليا، وذلك من أغرب المشاهدات الاجتماعية، لأن الأفكار العامة لا تأتيهم دائمًا إلا من أفكار عالية تختلف عنها أثراها في البيئة التي ولدت فيها، فيتناولها قائدوا الجماعة بعد أن تتمكن منهم ويشوهونها ثم يؤلفون فئة تزيد في تغييرها، ثم يبثونها في الجماعات، وهذه تضاعف التغيير، ثم تصير حقيقة عند العامة، وبعد ذلك تصعد إلى منبعها فتتمكن من نفوس الطبقة العالية، وعلى هذا يكون العقل هو الذي يحكم الدنيا، ولكن من بعد باعد، فقد تفني نظام الحكماء الذين يوجدون الأفكار وتصير ترابًا ويمر عليها كذلك الزمن الطويل قبل أن تسود الأفكار التي أوجدوها.

(٣) النفوذ

ما يساعد كثيراً على قوة تأثير الأفكار التي بثت في الجماعات بواسطة التوكيد والتكرار والعدوى كونها تنتهي باكتساب قوة خفية تسمى النفوذ. للنفوذ قوة لا تقف أمامها قوة أخرى، وكل سلطة سادت في الوجود سواء كانت سلطة الأفكار أو الرجال، فهو السبب في قيامها وسيادتها. والنفوذ كلمة يعرف الجميع معناها ولكنها تستعمل استعمالات كثيرة؛ ولذلك لم يكن من السهل تعريفها.

وقد يجتمع النفوذ مع بعض المشاعر كالإعجاب أو الرهبة، وربما كان الاثنان أصلًا له في أحوال كثيرة، إلا أنه قد يوجد بدونهما مثل نفوذ الذين ماتوا، فإنه لا محل للخوف منهم، ودليل ذلك أن أكثر من نشعر بنفوذه فيما هم من الذين ارتحلوا عن هذه الدار، ولم نعد نخاف منهم مثل الإسكندر وقيصر ومحمد ﷺ وبودا. كذلك لبعض الكائنات أو البدع تأثير في النفوس، وإن كان مما لا يعجب به كالألهة الملغوليين الذين يوجدون في معابد الهند التي تحت سطح الأرض.

يمكن أن يقال إن النفوذ عبارة عن سلطة رجل أو عمل أو فكر يستولي بها على العقول، وتلك السلطة تعطل ملكة النقد فتملاً النفس اندھاشاً واحتراماً، ولا يمكن تفسير الشعور الذي يحدث منه كما هو الشأن في كل شعور، إلا أنه لا بد أن يكون من جنس الاجتناب الذي يحدث في نفس الشخص النائم نوماً مغناطيسيّاً. والنفوذ أعظم مقوم لكل سيادة في العالم إذ لو لا هو ما ساد الآلهة والملوك والنساء.

ثم إن النفوذ أنواع يمكن حصرها في قسمين: النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصي، فالأول هو الذي يرجع لاسم صاحبه أو ثروته أو شهرته، وقد يكون منفصلاً عن النفوذ الشخصي، وأما النفوذ الشخصي فهو أمر ذاتي قد يجتمع مع الشهرة والمجد والثروة ويشتت بانضمامها إليه، وقد يكون وحده.

وأكثر النوعين شيوعاً هو النفوذ المكتسب أو العرضي، فهو يثبت للرجل بمجرد كونه يشغل مركزاً أو يملك ثروة أو يتحلى ببعض الألقاب، وإن لم يكن له قيمة من نفسه: فللجندي في لباسه وللقارئي في زيه الرسمي نفوذ ما ارتدياً لباسهما، ولذلك قال (باسكا) بضرورة الجبة والشعر للقضاة° ولو لا الجبة والشعر لفقدوا ثلاثة أرباع نفوذهم، ولا يزال الاشتراكي كيما اشتد جفاوه يشعر بشيء من الاضطراب إذا رأى أميراً أو عظيماً من الشرفاء، ويكتفي أن يكون هذا اللقب لرجل ليتمكن من النصب على التاجر فيما يشاء.

والنفوذ الذي أشرنا إليه خاص بالإنسان، وبجانبه يوجد النفوذ الذي يكون للأفكار أو الأدبيات أو الفنون وغير ذلك، وهو في غالب الأحوال ناشئ من التكرار، وما التاريخ وبالأخص تاريخ الآداب والفنون إلا تكرار رأي سبق ولم يعارضه أحد، فيؤول الأمر إلى أن كل واحد يكرر ما قرأ في المدرسة، ووُجِدَت بذلك أسماء وأشياء لا يجرأ أحد على الحديث فيها، فمما لا شبهة فيه أن مطالعة «هومير» تورث قراء هذا الزمان ملأً شديداً إلا أنه لا يجرأ أحد على القول به، و«البارتيون» أصبح اليوم خراباً تراكمت فيها الأنماض ولا فائدة منها إلا أن نفوذه لا يزال قوياً، حتى إنهم لا يبصرونها كما هو الآن، بل كما كان في القدم محفوفاً بأبهته وفخامتها، فمن خواص النفوذ أن لا يجعل الإنسان يرى الشيء على حقيقته وأن يعطل فيه ملحة النقد والتمييز.

تحتاج الجماعات دائماً والأفراد غالباً إلى آراء حاضرة في جميع المباحث، وانتشار هذه الآراء غير مرتبط بما اشتغلت عليه من الصواب أو الخطأ، بل مرجعه ما لها من النفوذ.

تنقل الآن إلى النفوذ الشخصي وهو يختلف مع النفوذ المكتسب؛ لأنَّه صفة تنفرد عن كل لقب وكل وظيفة يتصل بها أفراد معدودون فيبهرون بها نفوس من حولهم ويجدونها إليهم كالمحنطيس، وإن ساوهُم في المنزلة بين أمتهم، ولم يكن لهم شيء من وسائل التسلط والغلبة ويبثون فيهم أفكارهم وينقلون إليهم مشاعرهم، وأولئك يطعون أمرهم كما يطع الحيوان المفترس أوامر مُروضة وإن كان في استطاعته افتراضه بالسهولة لو أراد.

كان هذا النفوذ الكبير لجميع العظماء من قادة الجماعات مثل بودا وعيسي ومحمد عليه السلام وجان دارك ونابليون، وهو السبب في تمكّنهم، فإنما تسلط الآلهة والأبطال والمذاهب تسلطاً لا دخول للمناظرة فيه، بل ذلك السلطان يزول إذا بحث فيه.

كان أولئك العظماء ذوي قوة أخاذة قبل اشتهرهم، وتلك القوة هي السبب في شهرتهم، فلما بلغ نابليون مثلاً ذروة المعالي كان له نفوذ شامل بمقتضى منعه وسلطانه، إلا أنه كان له شيء منه يوم لم يكن له من السلطة ولم يكن معروفاً لدى أحد، فلما ترقى إلى رتبة لواء (جنرال)، وكان لا يزال مجهولاً عهد إليه من كان مستصيناً له بقيادة الجيش الفرنسي المحارب في بلاد إيطاليا، فوجد نفسه بين لواءات عتاة أشداء، وكانوا قد أجمعوا أمرهم على الإغلاق له في المقابلة لاعتبارهم إياه دخيلاً بينهم، ولكنه ما عتم أن أخذ بزمامهم من أول التقائه بهم بلا كلام ولا إشارة ولا وعيد، بل بأول نظرة من ذلك الذي قدر له أن يكون من العظماء. وإليك كيف كان اللقاء:

« جاء قواد الفرق إلى المعسكر العام وقلوبهم نافرة من هذا الرجل حديث النعمة، وكان بينهم اللواء (أوجيرو) وهو جندي عظيم الجثة غليظ الطبع مختال بطول نجاده، فخور بشجاعته، وكان ممتعضاً ينساب بالشتائم على نابليون من يوم أن سمع به وعرف أوصافه، فسماه صنيعة (باراس)، ولواء الشارع ونعته بالدب؛ لأنه كان يحب التفكير منعزلاً وذا سمنة صغيرة ومشهوراً بالرياضي الصغير وبالخيال، فلما اكتملوا أدخولهم غرفة الاستقبال، فأبطأ نابليون في الخروج إليهم، وبعد زمن بان لهم متقدلاً سيفه، ثم اتشح بردائه وأخبرهم ببنياته، وأنفذ إليهم أوامره وأشار إليهم بالانصراف. أما (أوجيرو) فقد تولاه الصمت ولم يرجع إلى نفسه إلا بعد أن خرج، فجعل يسب كما كان يشتم من قبل، ولكنه أقر مع زميله (مسينا) أن هذا القائد الصغير أوقع الرعب في قلبه وأنه حائز في التأثير الذي أخذ به أول ما وقع بصره عليه.»

صار نابليون من كبار الرجال فزاد نفوذه بمقدار ما أوتي من المجد، وأصبح في أعين الجماعات مساوياً للآلهة عند المتعبدين. اتفق أن القائد (فاندام)، وكان جندياً ثوريّاً خشن الطباع جاف الأخلاق أكثر من زميله (أوجيرو)، قصد ذات يوم تويلري حيث نابليون، وذلك سنة ١٨١٥ ومعه القائد (أورنانو)، فقال الأول للثاني وهما صاعدان فوق سلم القصر يحدثه عن نابليون: « أيها الصديق إن لذلك الرجل الشيطان في نفسي تأثيراً لست أدرك كنهه حتى إنك لتراني مع كوني لا أخاف الله ولا الشيطان إذا اقتربت منه تأخذني الرعشة كالطفل الصغير، ويخيل إلى أنه قادر على إدخالي في سُمّ الخياط وإحرافي بالنار»، وقد كان لنابليون مثل ذلك التأثير في جميع من يقترب منه.^٦

هذا التأثير الذي فاق حد الإعجاب يبين لنا السبب في الاستقبال العظيم الذي قوبل به نابليون يوم عودته من جزيرة «أُلّب»، وكيف أنه افتح ثانية بلا إمهال قلوب الأمة الفرنساوية وهو أعزل وليس معه مُعين وأمامه جيوش تلك الأمة المنظمة، وكان الناس يظنون أنها سئمت من جبروته عليها. حلف القواد الذين أرسلوا للقبض عليه أن يفعلوا، فلم تكن إلا نظرة منه أخضعتهم وهم صامتون. وكتب القائد (ولسلي) في ذلك يقول: نزل نابليون من السفينة إلى بر البلاد الفرنساوية وليس معه إلا قليل من رجاله الخصوصيين، كأنه فارٌ من جزيرة أُلّب الصغيرة التي كانت كل ما يقدر أن يتسلط عليه، فما لبث بضعة أسابيع حتى قلب نظام الإدارة الفرنساوية كلها على مرأى من ملوكها الشرعي، وذلك من غير أن يريق قطرة دم واحد من أهلها، بل بمحض نفوذه الشخصي مما لم يسبق له مثيل في الدنيا، وأعجب منه ما كان له من التأثير في حلفائه أثناء هذه

الحركة الطويلة التي ختمت فيها حياته العمومية، فإنه كان يلجهم إلى تتبع خطاه حتى كاد يسحقهم لو لا المقادير.

مات نابليون ولكن نفوذه بقي حيًّا أو صار ينمو، وتتأثيره هذا هو الذي حمل الناس على الاعتراف بابن أخيه إمبراطورًا، وكان من المستضعفين، وهو نحن أولاء اليوم نشهد ظهور أقاصيه من جديد، وذلك برهان على أن خياله لا يزال قويًّا في النفوس. أسيئ معاملة الرجال كما تشاء واقتلهم ألوًناً ألوًناً، وانزل على البلاد غارة وغارة، إنك في حل مما تصنع ما دمت ذا نفوذ، وكان فيك من الذكاء ما تحمي به ذاك النفوذ.

رب قائل ولكنك قد اخترت التمثيل للنفوذ بأكبر مثال، عزيز المثال، والحق أني اخترتته عمداً لأبين للقراء كيف ثبتت أركان الديانات الكبر، وقامت المذاهب العظام، وأنشت الممالك الواسعة، إذ لو لا تأثير النفوذ في الجماعات ما كانا لذلك مدركيين.

لا يقوم النفوذ بالتأثير الشخصي والفارغ العسكري، والرعب الدينية دون سواها، بل يجوز أن يتسبب عن أمر أصغر منها بكثير، ويكون مع ذلك شديداً، ولنا من القرن الحاضر أمثلة كثيرة أكبرها مثال سيتوارثه الخلف عن السلف جيلاً بعد جيل، وهو الذي نراه في تاريخ ذلك الرجل العظيم الذي غير وجه البسيط، كما غير طرق المواصلات التجارية بين الأمم يوم أن فصل بين القارتين، وقد كان السبب في نجاحه ما أوتيه من قوة الإرادة. ولا تننس تأثيره الذي كان ينفذ إلى نفوس مخالطيه، كان الناس كلهم ضداداً له، فإذا ما وجد فيهم انقلبوا برأيه معجبين، وإذا خاطبهم أسكنتهم عذوبة القول فأصبحوا بعد النفور أحبة صادقين. ولقد انفرد الإنكليز بالشدة في معارضته، فلما ظهر في بلادهم صاروا له أعوناً مخلصين، ثم من بمدينة (سوثمبتون)، فدقوا النواقيس فرحاً بمقدمه وهم يفكرون الآن في إقامة تمثال يخلد ذكره دهر الدهرين. قامت في وجهه الحوائط من مادة ورجال وماء وصخور ورمال، فقهر الكل وسخره، فلما فاز أصبح لا يؤمن بالصعاب ولا يخشى الصدام، وأراد أن يبدأ عملاً جديداً، ففكر في الذهاب من السويس إلى باناما وشرع في العمل بالوسائل نفسها، لكن الشيخوخة كانت قد أقبلت، واليقين لا يزحزح الجبال إلا إذا لم تتصل بذرورتها السماء. هنالك استعصى الجبل، وحم القضاء، ونزلت الكارثة، فهدمت صرح مجده أقامه ذلك البطل العظيم، إن في حياته لرشداً كيف يحيا النفوذ وكيف يموت، بلغ الرجل في المجد أرفع منزلة رقيها كبار الرجال، وأنزله قضاة أمته إلى أحسن دركات المجرمين، فلما مات مرت جنازته كأنها تشييع نفسها بين الجماهير وهم عنه لاهون، وإنما ملوك الدول الأجنبية هم الذين ذكروه يوم مماته فأعربوا عن إعجابهم به كما يقع لأعاظم الرجال.⁷

الأمثلة التي قدمناها تعد أقصى ما يبلغ النفوذ إليه، فإذا أردت أن تعرف ماهية النفوذ مفصلاً وجب أن تضع تلك الأمثلة في أعلى السلم، ثم تدرج من منشئي الديانات ومقيمي المالك حتى تصل إلى الرجل البسيط الذي يحاول أن يبهر جاره بثوب جديد أو وسام.

وبين هاتين النهائيتين درجات كثيرة من النفوذ تراها في جميع أركان المدينة من علوم وفنون وأداب، وترى النفوذ أول مؤثر في تحصيل الاعتقاد. فالناس يقلدون ذا النفوذ عمداً أو بمحض الفطرة سواء كان إنساناً أو رأياً أو شيئاً آخر. ويتوارد في أهل عصر من قلدوه طريقة مخصوصة يحسون بها ويترجمون عما به يشعرون ويكون التقليد في الغالب فطرياً، لذلك يبلغ حد الكمال والانتقام. ومن ذلك أن مصوري هذه الأيام أخذوا يعيدون رسم الصور ذات الألوان الباهتة والأزياء العابسة التي تمثل أناساً من أهل الفطرة الأولى، وهم لا يشعرون من أين جاءهم هذا الميل، ويظنون أنهم هم الذين أوجدوه لأنفسهم، وفاتهم أنه صنع أحد كبار المصورين، ولو لا ذلك لاستمرروا على النظر إلى تلك الصور من جهة سذاجتها وانحطاط درجتها في فن التصوير، ومنهم من قلدوا أحد المشاهير فجعلوا يكترون في مصوراتهم من الظلال البنفسجية اللون مع أنهم لا يرون هذا اللون منتشرًا في الطبيعة أكثر مما كان يراه غيرهم منذ خمسين عاماً. والواقع أنهم متاثرون بفعل أستاذ من عظماء أساتذة الفن كانت له في ذلك التلوين شهرة فائقة وإن كان هذا الاختراع مما يعد غريباً. وأمثال المصورين كثيرة في جميع عناصر المدينة.

ويؤخذ مما تقدم أن النفوذ يتكون بعوامل شتى أهمها النجاح، فمتى نجح الأمر في أمره دانت له الناس وبطلت معارضتهم له، وكذلك الفكر إذا تمكن من العقول، والدليل على أن النجاح أقوى عامل في تحصيل النفوذ أن هذا يذهب بذهاب ذاك، فالناس يهالون في المساء لبطل كل بالنصر ويُسخرون منه في الصباح إذا قلب له الزمان ظهر الجنّ. وبقدر النفوذ يكون انعكاس الرأي في صاحبه إذا تولته الخيبة، فتراه الجماعة من أندادها، فتميل إلى الانتقام منه جزءاً منها أمام سلطانه الذي لم تعد تعترف له بشيء منه. هكذا كان نفوذ روبيسيير شديداً يوم كان يقطع رعوس زملائه ورءوس الكثير من معاصريه، فلما ضاعت منه بعض الأصوات وقت الانتخاب وسقط من مركزه فارقه النفوذ ل ساعته وشيّعته الجماعة إلى المشنقة وهي تتميز من الغيط كما كانت تشيع بالأمس ضحاياه. ومن عبد الآلهة وزاغ عنها كاد يقتله الغضب وهو يحطم الأصنام.

يذهب الخذلان بالنفوذ فجأة، وقد يذهب النفوذ بالبحث فيه، لكن ذلك لا يتم بالتدريج، وهذه الوسيلة هي أضمن الوسائل لإضاعته، وما من إله أو إنسان دام له

النفوذ زمناً طويلاً إلا كان لا يحتمل المراقبة فيه، إنما تعجب الجماعات بمن يتربع عن مقامها.

هوامش

(١) راجع كتاب الإنسان والهيئة الاجتماعية مؤلفه جوستاف لوبون سنة ١٨٨١ جزء ٢ ص ١١٦.

(٢) رواية وضعها وجنب، نَفَرَ الناس منها أولاً ثم أُعجبوا بها.

(٣) حكيم مشهور بفرنسا في أواخر القرن الماضي وكان قسيساً في مبدأ أمره، وهو صاحب الكتاب المعروف المسمى (حياة المسيح).

(٤) أشهر كُتاب الفرنساوين في القرن الثامن عشر.

(٥) للألقاب والأوصمة والشارات تأثير في الجماعات في كل بلد حتى التي بلغ فيها استقلال الفرد وحريرته أرفع الدرجات. وإنني أنقل هنا جملة غريبة من كتاب حديث نشره أحد السياح بياناً لنفوذ بعض العظماء في إنكلترا قال: «لاحظت مراراً أن اجتماع أحد الحائزين لقب (بير) مع أكبرهم عقلاً وتميزاً يحدث في نفوس هؤلاء شعوراً يكاد يكون سكرًا من نوع خاص، فمتى كان له من اليسار ما يرتكز عليه لقبه، فهم يحيونه قبل أن يروه، فإذا التقوا به تلقوا منه كل شيء فرحين، تحمر وجوههم سروراً بمقده، فإذا خاطبهم كتموا جذلهم فيشتد أحمرانوجنتين، ويظهر في العينين بريق غير معهود. اللوردية في دمهم كالرقص عند الأندلسي والمسيقي عند الألماني والثورة عند الفرنساوي، شهوتهم في الخيل وشكسبيه أقل من شهوتهم في الشرفاء وارتياحهم وتيههم لهؤلاء أكبر. كتاب تلك الرتبة عندهم في رواج وهو كالتوراة موجود عند كل إنسان.

(٦) وكان هو يعلم ذلك من نفسه، ويعلم أنه يزيد فيه بمعاملته أكبر من حوله من الرجال معاملة لا تليق بعلاف الخيل، على أنه كان من بينهم كثيرون من رجال الثورة الذين أزعجوا أوروبا، وروايات عصره مشحونة بالأمثلة في هذا الموضوع، فمنها أنه انتهر ذات يوم (بونيو) وسط مجلس شورى الدولة ونعته بخادم قليل التربية، فارتعد المشتوم، فاقترب نابليون وقال له: «أثاب إليك رشدك أيها الأبله الكبير». وكان بونيوا واقفاً على قدميه كالمارد فانحنى ملياً، فمد الصغير يده وقبض على أذن الكبير. قال (بونيو): «علامة رضا تسcker من وجهت إليه وصفاء سيد يتلطف». هذه الحوادث وأمثالها تدل على ما يفعله النفوذ في النفوس إذ يجعلها تخون الذلة والصغار،

وتبيّن لدرجة احتقار ذلك الجبار العظيم لمن حوله، فهو الذي كان يقول عنهم إنهم لا يصلحون إلا حشواً للمدافع.

(٧) لما مات دولسيبس نشرت جريدة «نوي فراري بريسه» التنساوية بمدينة «فيينا» مقالة في مآل ذلك الرجل، جاءت فيها بخواطر جديدة بالإمعان؛ ولذلك نقلها للقراء، قالت: «لم يبق موجب للعجب من مآل كريستوف كولبو (هو الذي اكتشف أمريكا) الذي يثير الحزن والأسى بعد الحكم على «فرديناند دولسيبس»؛ لأنه إذا كان فرديناند دولسيبس نصابة، فكل أهل من الآمال الكبار جرم عظيم، ولو كان دولسيبس من أهل العصور الأولى للتوجه أهل زمانه بأبهى تاج من المجد والفاخر، ولسقوه الرحيق في حجرة آهتهم التي كانوا يعبدون؛ لأنه غير وجه الأرض، وأتى من الأعمال ما يدعو إلى تحسين الخلق في الوجود».

«خلد رئيس محكمة الاستئناف اسمه في التاريخ بحكمه على دولسيبس؛ لأن الأمم لا تنفك تسأل عن اسم الذي اجترأ غير هياب فحط من قدر عصره، وأليس طاقية المجرمين رأس شيخ كانت حياته مجدًا وفاخرًا لمعاصرية».

«ألا فليكفوا منذ اليوم عن ذكر العدالة بين ربوع تمكنت البغضاء من نفوس صغار الموظفين في مصالحهم، فحنقوا على كل من قام بعمل مجيد، إلا أن الأمم في حاجة إلى رجال ذوي عزم وإقدام يثقون بأنفسهم ويتحمرون كل صعب، وهم لذواتهم غير ملتفتين، إلا أنه لا حذر لنابغ إذ ولو كان حذرًا ما أمكنه أن يرقى هامة العصر الذي هو فيه».

ذاق فرديناند دولسيبس حلاوة المجد وغضاضة الجذل، السويس وبيناما. وهنا يحق للنفس أن تخضب من آداب الفوز والانتصار. فلما أفلح دولسيبس وجتمع بين البحرين جاءته الملوك والأمراء تهديه التهاني، واليوم لما أدركه الفشل أمام صخور (كورديليير) كان نصابةً حقيرًا. إن هذه إلا حرب تقوم بين الطبقات في الأمم يثيرها حقد الموظفين الذين ألفوا المكاتب ولاذوا بقانون العقوبات انتقامًا من يصبو إلى المجد والمعالي. وقد يحار مشرعوا هذى العصور أمام تلك الأفكار العالية التي يولدتها النبغاء، والعامة في ذلك أقل فهماً وأدنى إدراكًا. لكن من السهل على الأفوكاتو العمومي إقامة البرهان على أن ستانلي من القتلة وأن دولسيبس من الخادعين:

والناس من يلق خيراً قاتلون له ما يشتهي ولام المخطئ الهبل

الفصل الرابع

حدود تقلب معتقدات الجماعات وأفكارها

(١) في المعتقدات الثابتة

يوجد بين الخواص التشريحية أي الجسمانية والخواص النفسية تشابه تم، فمن الأولى ما هو ثابت أو لا يتغير إلا ببطء شديد بحيث يلزم لتغييره زمن كالذي بيننا وبين الطوفان، ومنها ما هو متقلب يتغير بالسهولة من أثر البيئة أو المربى، وقد يبلغ التغيير درجة تختفي فيها الخواص الأصلية على غير المتأمل.

وكذلك الحال في الخواص الأدبية، فمن أخلاق الشعب ما هو ثابت لا يغيره كرور الأيام، ومنها ما هو متقلب يتغير. ومن ينعم النظر في معتقدات الأمم وأفكارها يرى دائمًا في أخلاقها أصلًا ثابتاً ترسّب فوقه أفكار متقلبة كما ترسّب الرمال فوق الصخر. وعليه تنقسم معتقدات الجماعات إلى قسمين: الأول المعتقدات الدائمة التي تعمّر عدة قرون، وإليها ترجع مدنية الأمة كلها كالأفكار التي سادت أيام حكم الشرفاء والمعتقدات المسيحية وأفكار الإصلاح (البروتستانتية) وكالجنسية والأفكار الديمقراطية والاجتماعية في أيامنا. والقسم الثاني يشمل الأفكار الواقتية المتغيرة، وهي مشتقة في الغالب من الأفكار العامة تظهر وتغيب في الجيل الواحد كالنظريات التي تسترشد بها الفنون والأدب في أوقات معلومة، ومذهب حرية الكتابة (الإنشاء)^١ ومذهب الطبيعين ومذهب الصوفية ... وهكذا. وتلك الأفكار كلها سطحية سريعة التغير، كالبدئ (المودة) فمثلاً كمثل الأمواج الصغيرة التي تظهر وتختفي من دون انقطاع على سطح بحيرة عميقة.

المعتقدات الكبيرة العامة قليلة جدًّا، وقيامتها وسقوطها في كل أمة ذات تاريخ يمثلان أعظم دور في حياتها، ولا قوام للمدنية بدونها.

ومن السهل جدًا إيجاد فكر وقتي في عقول الجماعات، لكن من الصعب جدًا تقرير معتقد دائم في نفوسها، كما أنه من الصعب جدًا هدم اعتقاد تمكن منها، ولا سبيل إلى التغيير غالباً إلا بالثورات العنيفة، بل إن الثورة لا تؤدي إلى ذلك إلا إذا أضحمت قبلها أثر المعتقد في النفوس، فهي تصلح لكسح تلك البقية التي تكاد تكون في حكم المهمل لولا أن سلطان العادة يمنع من الإلقاء عنها بالمرة، فالثورة التي تقبل عبارة عن معتقد يدبر.

ومن السهل تجديد اليوم الذي ينذر فيه أحد المعتقدات الكبرى، ذلك هو يوم يأخذ الناس بالبحث في قيمة هذا الاعتقاد؛ لأن كل اعتقاد عام يكاد يكون أمراً فرضياً، فهو لا يتحمل البقاء إلا بشرط عدم البحث فيه.

غير أن النظمات التي أسست على اعتقاد عام تستمر حافظة لقوتها ولا تتحلل إلا ببطء، وإن تزعزع ذلك الاعتقاد، فإذا تم له الهدم تساقط ما بني عليه.

ومما قضت به سنة الوجود حتى الآن أن كل أمة أصبحت متمكنة من تغيير معتقداتها لا بد لها عاجلاً من تغيير جميع أركان حضارتها، فهي تُغير وتبدل فيها حتى تهتمي إلى معتقد جديد عام ترضاه النفوس وتعيش في فوضى حتى تعثر عليه، فالمعتقدات العامة هي دعائم الحضارة التي لا بد منها، وهي التي ترسم للأفكار طريقها الذي تسير فيه، وهي التي توحى بالإيمان وتفرض الواجبات.

أدركت الأمم على الدوام فائدة المعتقدات العامة، وفطنت إلى أن يوم زوالها هو يوم بدء سقوطها. عبد الرومانيون مدينة روما عبادة المتصفين، فسادوا على الدنيا أجمع، فلما انطفأ هذا الاعتقاد ماتت مدينة روما، واستمر المتربيون الذين خرّبوا ملوكها على همجيتهم حتى إذا رسخت بينهم بعض المعتقدات العامة وجد فيهم شيء من الامتزاج والتآلف وخرجوا من الفوضى.

وعليه تعذر الأمم في دفاعها المستميت عن معتقداتها، إذ الحقيقة أن هذا التعصب هو أرقى الفضائل في حياة الأمم وإن كان مذموماً جدًا من الجهة الفلسفية.

ما أحرق أهل القرون الوسطى الألوفَ من الناس إلا للدفاع عن معتقد عام موجود أو لإدخال معتقد عام جديد في النفوس. وما مات الكثير من المخترعين والمبتدعين والأسى ملء قلوبهم إلا لأنهم لم ينالوا قسطاً من العذاب لأجل تلك المعتقدات، وما اضطربت الدنيا المرة بعد المرة إلا للدفاع عنها، وما ماتت الملايين في ساحة الولي إلا بسببها، وكذلك يكون في مستقبل الأيام.

من الصعب غرس معتقد جديد، لكنه بعد أن يتمكن من النفس يدوم شديد التأثير زمناً طويلاً، وكيفما كان خطأً من الجهة الفلسفية، فإنه يتسلط على أكبر ذوي الألباب، بدليل أن الأمم الأوروباوية دانت لأقاصيص واعتقدتها حقائق لا شك فيها خمسة عشر قرناً، والمتأمل في تلك الأقاصيص يراها أحق بال القوم الهمج،^٢ كأقاصيص (مولوخ)^٣ هكذا بقي العالم قروناً وهو لا يفقه تلك الخرافية الرائعة القائلة بأن إلهًا ذاق ابنه عذاب الهون انتقاماً من عصاه من خلقه، ولم يجل بخاطر أعظم الرجال عقلًا وإدراكًا مثل (غاليليه) و(نيوتون) و(لابينيتز)، أنه يجوز النظر في حقيقة هذه الأفكار، ذلك مما يبرهن على قوة استياء المعتقدات العامة وسحرها منفوس، ولكنه يبرهن أيضاً على أن العقل محدود بحدود مخلجة.

ومتى تمكنت عقيدة جديدة من نفوس الجماعات أصبحت مصدر نظاماتها ومرجع فنونها وقاعدة سيرها. هنالك يستحكم سلطانها وتتم غلبتها، فترى أهل العزائم لا يفكرون إلا في تحقيقها، وواضعى القوانين إلا في الأخذ بها، والفلسفه وأرباب الفنون والكتاب إلا في تمثيلها على صور شتى.

وقد يتولد عن العقيدة العامة أفكار وقتية ثانوية، إلا أنها تكون على الدوام مصبوغة بصبغتها، فقد تولدت حضارة المصريين وحضارة الأوروبيين في القرون الوسطى وحضارمة المسلمين من عقائد دينية قليلة العدد، طبعت كل عقيدة منها خاتمتها على كل جزئية من جزئيات حضارتها وسهلت بذلك معرفتها.

من هذا يتبين أن الفضل للعقائد العامة في إحاطة أهل كل عصر بتقاليد وأفكار عادات تقيدوا بها وصاروا متشابهين، والذي يهدي الناس في سيرهم إنما هي الأفكار والعادات المتولدة عن تلك العقائد، فهي الحاكمة على أعمالنا جلياً وصغيراً، وكيفما سمت مداركنا فإننا لا نفكر في الخلاص منها، إذ الاستبداد الحقيقي هو الذي يدخل على النفوس من طريق الغرائز؛ لأنه هو الذي لا يمكن المرء من محاربته، فلقد كان (تيبير) و(جنكيزخان) و(نابليون) جبارين مستبدین، ولكن استئثار «موسى» و«بودا» و«عيسى» و«محمد» ﷺ و«لوتر» وهم في القبور أشد وأبقى. إن مكيدة قد تبيّد سطوة الجبار، ولكن ماذا ينفع الكيد في عقيدة استقرت في النفوس، قامت حرب عنيفة بين الثورة الفرنساوية والدين المسيحي وكانت الجماعات في ظواهر الأمر من جانب الأولى، واستعمل الثوار من وسائل القهر والاضطهاد ما استعمله الأنجلسيون، والثورة هي التي دارت عليها الدائرة، إنما الجبارية الذين سادوا في البشر هم خيال الأموات أو الأوهام التي أوجدتها الأمم لنفسها.

ما كان بطلان العقائد العامة من حيث النظر والفلسفة مانعاً من استظهارها، وقد يظهر أن فوزها مشروط باحتوائها على شيء من الهزء الخفي. وإذا كانت مذاهب الاشتراكيين في العصر الحاضر واضحة الضعف، فليس ضعفها هذا هو الذي يكون سبباً في عدم استيلائها على نفوس الجماعات، وإنما السبب في انحطاطها عن جميع العقائد الدينية راجع إلى أن السعادة التي وعدت بها الديانات لا تتحقق إلا في الدار الباربة؛ فلم يكن لأحد أن يماري في تحقيقها. وأما السعادة التي وعد بها مذهب الاشتراكيين، فإنها يجب أن تتحقق في الحياة الدنيا، ومتى شرع في ذلك بان أن الوعد خلب وسقط بذلك نفوذ العقيدة الجديدة، وعليه فلا يعظم سلطان هذه العقيدة إن تم لها الظفر إلا إلى اليوم الذي يبدأ فيه بتحقيقها، وذلك هو السبب في أن هذا الدين الجديد له من قوة التخريب ما كان لغيره من الأديان التي سبقته، ولكنه لن يكون له ما كان لها من قوة النبأ.

(٢) فيما للجماعات من الأفكار غير الثابتة

يوجد فوق سطح العقائد الثابتة التي شرحنا تأثيرها العظيم طبقة من الأفكار والآراء التي تتجدد وتزول دائماً، فمنها ما يدوم يوماً واحداً، وأهمها لا يدوم أكثر من الجيل الذي نشأ فيه. وقد قدمنا أن التغيير الذي يطرأ على هذه الأفكار صوري أكثر مما هو حقيقي في الغالب، وأنها مصبوغة على الدوام بصبغة الشعب الذي توجد فيه، ومثلنا لذلك بنظام بلادنا السياسي، فأوضحنا أن أشد المذاهب خلفاً من ملوكين وجمهوريين وإمبراطوريين واشتراكيين، وهكذا يشتركون فيما يرمي جمיהם إليه، وأن هذا المرمى راجع إلى طبيعة شعبنا النفسي أو الأدبية. واستظهمنا على ذلك بوجود أسماء هذه النظمات، وأنها عند أمم أخرى ودلائلها على شيء آخر، وبأن وضع الأسماء للأفكار والإباس الشيء ثوبًا يريه في صورة غيره لا يغير من حقيقة ذلك الشيء. كان أهل الثورة الفرنساوية متسبعين بأدبيات الرومانيين شاخصين على الدوام إلى جمهوريتهم، فنقلوا إليهم شرائعهم وقضبانهم، وأردitiهم، واجتهدوا في تقليلهم في نظماتهم وأحوالهم، ومع هذا لم يصيروا رومانيين لأنهم كانوا حكمين بتقليلهم التاريخية. ووظيفة الحكيم هي استخلاص ما بقي من العقائد الأصلية وسط التقلبات الصورية، وأن يميز في ممعنة الأفكار المتغيرة ما يرجع منها إلى روح الشعب وعقائده العامة.

إذا لم يوجد هذا الفارق الفلسفـي جاز الظن بأن الجماعات تغير كثـيراً عقائدها الدينية والسياسية كما تشاء، والظاهر أن التاريخ يؤيد هذا الظن سواء كان تاريخ

السياسة أو الدين أو الفنون أو الأدب، لأننا إذا نظرنا في تاريخنا إلى الفترة القصيرة الواقعة بين سنة ١٧٩٠ وسنة ١٨٢٠ – أعني ثلاثين سنة، وهو عمر جيل واحد – ورأينا الجماعات التي كانت ملوكية تحولت فصارت ثورية للغاية ثم إمبراطورية كذلك ثم عادت ملوكية كما كانت، هذا في السياسة. وأما في الدين فإنها كانت كاثوليكية ثم كفرت ثم قالت بالألوهية، ثم رجعت إلى الكثلكة الضيقية إلى حد التغالي، ولم يكن ذلك شأن الجماعات وحدها، بل شاركها فيه كله قواهداً فشهادنا، والعجب يأخذ منا أولئك الثوار الذين تقاسموا على بغض الملوك، وأنكروا الله والسلطان أمسوا حداماً خاضعين لنابليون، وأصبحوا يحملون الشموع والخشوع ملء جوانحهم في احتفالات الملك لويس الثامن عشر.

وما أكثر الانقلابات التي طرأت على أفكار الجماعات في السبعين سنة التالية، فقد صار الإنكليز حلفاء أمّة الفرنسيّين في عهد خليفة نابليون، وكانوا في أول القرن أعداء ماكرين، وأغرنا مرتين على بلاد الروس، وكم خفت قلوبهم فرحاً بانكسارنا ثم صاروا لنا أصدقاء.

وأسرع من ذلك تقلب الأفكار في الأدب والفنون والفلسفة، فكنا لا نتقيد بقواعد اللغة، وكنا طبيعيين وكنا صوفيين، وكنا غير ذلك؛ كل هذا ظهر واختفى، وكان الناس يتغنون باسم هذا الكاتب أو ذاك المصور في المساء، فإذا أصبح الصباح حقروه ورذلوه. وإذا دققنا البحث في هذه التقلبات التي يحال أنها حقيقة متأصلة في النفس رأينا أن ما كان منها مخالفًا لاعتقادات العامة ومشاعر الشعب، فهو زائل لا يدوم إلا يسيراً، ولا تلبث المياه أن تعود إلى مجاريها، فمن المعلوم أنه يستحيل دوام الأفكار التي لا رابطة بينها هي والمعتقدات العامة ومشاعر الشعب؛ لأنها معرضة لتأثير الطوارئ والاتفاق تتغير بأقل تغيير في البيئة التي وجدت فيها. ومما يدل أيضًا على عدم بقائها أنها تولدت من طريق الإلقاء والعدوى، فهي تولد ثم تموت بسرعة الرمل الذي يتكون أكاداً على شاطئ البحر ثم تذهب به الريح ثم تعيده ... وهكذا.

ولقد كثرت في أيامنا هذه أفكار الجماعات التي لا بقاء لها، ولذلك ثلاثة أسباب: الأول: أن الاعتقادات القديمة أخذت تضعف شيئاً فشيئاً، فلم تعد تؤثر في الأفكار العرضية تأثيراً ينظمها ويهديها، وضعف تلك الاعتقادات العامة من شأنه أن يفسح المجال لتولد أفكار خاصة لا رابطة بينها هي والماضي، ولا يرجى بقاوها في المستقبل.

السبب الثاني: أن قوة الجموع تزداد شيئاً فشيئاً، والقوة المضادة تضعف بمقدار ذلك، وقد عرفنا أن الجماعات كثيرة التقلب في أفكارها، فالنتيجة أنها أصبحت أكثر حرية في إظهار تلك الأفكار المتقلبة.

والسبب الثالث: هو كثرة انتشار المطبوعات لما فيها من كثرة الأفكار المتناقضة التي تعرضها على الجماعات. فالفكرة لا تكاد تظهر حتى تبطل بظهور فكرة تخالفها، وما من فكر ينتشر تماماً وكلها محكوم عليهما بسرعة الزوال، فهي تموت قبل أن تنتشر انتشاراً يثبتها و يجعلها معقداً عاماً.

من تلك الأسباب تولدت ظاهرة جديدة في تاريخ البشر ينفرد بها العصر الحاضر، وهي ضعف الحكومات عن قيادة الرأي العام.

كان زمام الرأي في الزمن السابق ما هو في يد الحكومات وبعض ذوي النفوذ من الكتاب، وعدد مخصوص من الجرائد: فأما الكتاب فقد انعدم تأثيرهم، وأما الجرائد فإن وظيفتها أصبحت قاصرة على أن تكون مرآة للرأي، وأما السياسيون فإنهم لا يديرون أنه بل يسيرون خلفه، وقد أخذتهم منه رهبة تكاد أحياناً تبلغ حد الذعر والاندهاش، فهم لا يثبتون في أي طريق يسلكون.

نتج من هذا أن رأي الجماعات يقرب كل يوم من الاستيلاء على زمام السياسة، وقد وصل الآن إلى إلقاء الأمم لعقد المحالفات، كما وقع أخيراً في المحالفات الروسية التي كانت حركة الرأي العام مصدرها الوحيدة. ومن أعجب ما يشاهد الآن استسلام الباباوات والملوك والقياصرة لنظام الأحاديث^٥. ليصرحوا بأفكارهم ويعرضوا آرائهم في أمر من الأمور إلى حكم الجمهور. قالوا فيما مضى إن السياسة ليست من الأمور التي تسيرها المشاعر، وإنما نشك في أنه يمكن القول بذلك الآن بعدما بان أن نزعات الجماعات تقودها كل يوم أكثر من الذي قبله، والجماعات لا تعرف العقل ولا تندفع إلا بالمشاعر. وأما الجرائد وبعد أن كانت تقود الرأي العام كالحكومات، اضطرت إلى التسليم أمام سلطان الجماعات. نعم للجرائد أثر شديد في الناس، لكن ذلك سببه أنها صارت مرآة لرأيهم وتتغير أفكارهم المستمرة. أصبحت الجرائد رسل أخبار، فلم تعد قادرة على نشر رأي أو تحرير مذهب، بل هي تسير خلف أهواء الجماعات مكرهة على ذلك بحكم المسابقة والتزاحم، وإلا خسرت قراءها، ألا ترى الجرائد الكبرى القديمة التي كان لها المقام الأول والتأثير القوي مثل (لوكونستيتو سيونيل) و(الديبيا) و(السيكل)، وهي التي كان يتلقى آباءنا أقوالها كالوحى المنزل من السماء، قد احتجت أو صارت

صحف أخبار محلية ببعض الفكاهات القصصية ولطائف المجتمعات والإعلانات التجارية. لا توجد اليوم جريدة تسمح ماليتها للمحررين بإبداء آرائهم الذاتية، على أنها إن وُجِدَتْ ما كان لتلك الآراء والأفكار قيمة عند القراء؛ لأنهم إنما يطلبون خبراً يقرأونه أو نكتة يتذكرون بها، وصاروا في ريب من كل رأي ونصيحة توجه إليهم، إذ يظنون أن وراءها طمعاً في ربح أو سعياً لمنفعة خاصة. بل إن أهل النقد أصبحوا لا يجرأون على نشر كتاب أو رواية تمثل في المراوح، فإن النقد صار مما قد يجلب الضرر ولا يجر إليهم نفعاً. أيقنت الجرائد بعدم الفائدة من النقد أو إبداء الآراء الشخصية، فجعلت تقلل منه في عالم الأدب حتى بطل واستعراضه بذكر اسم الكتاب الجديد متبعاً بسطرلين أو ثلاثة للإعلان عنه، والبحث على اقتئائه، وربما آل الأمر إلى مثل ذلك بعد عشرين سنة فيما يتعلق بنقد الروايات التي تشخيص في الملاهي.

أصبح الشغل الشاغل للجرائد والحكومات تتبع حركات الرأي العام، فالذى يهمهم من حدث يقع أو من مشروع قانون يحضر أو من خطاب يلقى، إنما هو أثر ذلك في الناس، وما ذلك بهين على طلابه لشدة تغير أفكار الجماعات، فما أسرعها في السخط على أمر لم تكن تفرغ من التهليل له.

ينتج عن فقدان ضابط للرأي واقتراح ذلك بانحلال الاعتقادات العامة تفتت اليقين وتمزق الوجданيات وعدم اهتمام الجماعات بشيء لا تظهر فيه لها منفعة حاضرة ظهوراً تاماً. وأما المذاهب كالاشراكية، فإن حماتها المخلصين من أجهل الطبقات كعمال المعادن والمصانع، أما متوضطو الحال وكل من ناله قليل من التعليم فهم في شك من كل شيء أو هم كثيرو التقلب.

التطور الذي تم من هذه الجهة في الخمس والعشرين سنة الماضية واضح. فقبل ذلك والعهد قريب كان للأفكار وجهة عامة؛ لأنها كانت مشتقة من بعض اعتقدات أصلية، وكان للملوكي بمقتضي كونه ملوكيًّا أفكار وأراء ثابتة في التاريخ وفي العلوم، وكان للجمهوري بمقتضي كونه جمهوريًّا أفكار وأراء تناقض الأولى على خط مستقيم، الأول يعتقد أن الرجل ليس متولداً من القرد والثاني يعتقد ضد تماماً. الأول يرى من الواجب عليه إذا تكلم في الثورة أن يغضب وينفر والثاني أن يعجب ويبالغ في التعظيم والتجليل. وكان من الناس من لا يجوز ذكر اسمه إلا مقرؤناً بالخشوع والإجلال مثل (روبيسيير) و(مارات)، أو متبعاً بالترذيل والامتهان مثل (قيصر) و(أوغسطس) و(نابليون)، وعم هذا المذهب السخيف في التاريخ حتى تفشي في مدرسة (السبعين) نفسها.^٦

ليس لفكرة ولا لرأي في هذه الأيام وقع في النفوس لكثرة الملاحظة والتحليل مما يذهب بطلاتها، ولا يجعل تأثيراً للبقاء، والذي ينفرد به أهل هذا الزمان هو عدم الاهتمام بالأمور شيئاً فشيئاً.

على أنه ينبغي أن لا نحزن من انتشار الأفكار، نعم لا شبهة في أنه منذر بانحطاط الأمة، لأنه من الحق أن تأثير أهل الخيالات والرسل وقادة الجماعات، وعلى الإطلاق جميع الذين سكن اليقين قلوبهم، أكبر جدًا من تأثير أهل الجحود والنقددين ومن لا يهتمون بشيء. لكن لا يذهب عنا أنه إذا تمكّن رأي واحد من النفوس والجماعات على ما هي عليه الآن من القوة والنفوذ لا يليث أهله أن يصيروا مستبدّين استبداداً يذل له كل ما في الوجود، ويغلق باب حرية الأفكار وحرية النقد زمناً طويلاً. لا يقال إن من سلطتين الجماعات من كان ندي الخلق لين الملمس لأن طبعها قلب، فهي هوانة سريعة الغضب والانفعال، فإذا قدر لحضارة أن تقع في يدها أصبحت هدفاً للطوارئ والمصادفات، وقصر بذلك أجلها وإن كان يرجى تأجيل زمن الانحدار والسقوط، فإنما يكون ذلك من شدة تقلبات آراء الجماعات وعدم اهتمامها بالاعتقادات العامة.

هوامش

- (١) هو مذهب يقول أصحابه بعدم وجوب التقيد دائمًا بما جرى عليه السلف في فن التحرير من التزام قواعد وتراتيب مخصوصة.
- (٢) أقول الهمج من حيث الفلسفة والنظر، أما عملاً فقد أوجدت تلك الأفاصيص مدنية جديدة صرفة، وأبصر الناس من ورائها مدى خمسة عشر قرناً هاتيك الجنان دانية القطوف، وأحيث قلوبهم بالأمال مما لم يعودوا يذوقون حلوته الآن.
- (٣) إله عبده الكلدانيون وأهل قرطاجة، وكانوا يحرقون الأطفال قرباناً له، ويعتقدون أنه يمد ذراعيه دائمًا ليتلقاها (م).
- (٤) شارات القوة والعظماء عند الرومانيين.
- (٥) يشير إلى ما ألمه الناس في هذه الأيام من محادثة الملوك والعظماء ونشر أحاديثهم في الكتب والصحف.
- (٦) يوجد في هذا الباب بعض صفحات من كتاب المعلمين الرسميين في مدارسنا غاية في الغرابة، وهي تدل على ضعف ملكة النقد الناشئ عن طريقة التربية في المدارس، وإنني أنقل للقراء الأسطر الآتية من كتاب الثورة الفرنساوية لأحد مدرسي التاريخ في

مدرسة (السربون) المذكورة قال: «إن الاستيلاء على (الباستيل) عمل من أكبر أعمال تاريخ الأمة الفرنساوية، بل تاريخ أوروبا كلها، لأنه كان فاتحة دور جديد في حياة الأمم.» وقال عن (روبسبيير) إن استبداده بالناس كان استبداد رأي ويقين، ونفوذ أدبي، وكان أشبه بسلطة روحية عليا في يد رجل من الأخيار» (صفحة ٩١، ٢٢٠).

الباب الثالث

أقسام الجماعات وبيان أنواعها

الفصل الأول

أقسام الجماعات

بعد أن بينا الصفات العامة للجماعات النفسية ينبغي أن نبين الصفات الخاصة التي تنفرد بها الماجماع عن بعضها إذا صارت جماعات بتأثير الأسباب المؤدية إلى ذلك. ولنبدأ بقول موجز في تقسيم الجماعات.

فأولها الجمع مطلقاً وأدنى مراتبه ما كان مؤلفاً من أفراد ليسوا من شعب واحد ولا رابطة بينهم إلا إرادة رئيسهم بقدر ما له من المنزلة فيهم. ويمكن التمثل بهذه الماجماع بالمتربرين مختلفي الأصول الذين أغروا على المملكة الرومانية مدة قرون عده. ويليها الجموع التي احتفتها أحوال وعوامل ولدت فيها صفات عامة وانتهت بأن صارت شعباً واحداً، ولهذه الجموع في بعض الأحيان الصفات الخاصة بالجماعات، إلا أن هذه الصفات الخاصة تكون دائمًا متاثرة بصفات الشعب العامة. فإذا اجتمعت في هذه الماجماع بقسميهما العوامل التي ذكرناها في هذا الكتاب صارت جماعات منظمة أو نفسية، وهذه الجماعات تتقسم إلى الأقسام الآتية:

أولاً: الجماعات المختلفة العناصر وفيها:

- (١) الجماعات التي لا اسم لها «كجماعات الطريق العام».
- (٢) الجماعات التي لها اسم خاص «كالدول الملحفيين والمجالس النيابية وهكذا».

ثانياً: الجماعات المؤلفة العناصر وفيها:

- (١) الأفقاء (كالمجموع السياسي والديني وهكذا).
- (٢) الطوائف (كالمجموع العسكرية ورؤساء الدين والعمال وهكذا).
- (٣) الطبقات (كمجموع الأواسط وجموع أهل الريف وهكذا).

وإليك قولهً موجزاً في بيان مميزات كل نوع من هذه الأنواع:

(١) القسم الأول: الجماعات المختلفة العناصر

هذه الجموع هي التي شرحنا صفاتها في هذا الكتاب، وهي تتألف من أفراد أيًّا كانوا وكيفما كانت حرفتهم ومهنتهم وعقولهم. ونحن الآن نعرف أنه متى اجتمع قوم وكونوا جماعة عاملة اختلفت أحوالهم النفسية الاجتماعية مع أحوالهم النفسية الفردية اختلافاً عظيماً، وأن العقل لا يمنع من هذا الاختلاف لأنه لا تأثير له في الجماعات، وأن الذي يؤثر فيها إنما هو المشاعر الغريزية.

ومن العوامل الأصلية ما يسهل معه تمييز الجماعات المختلفة العناصر تمييزاً تاماً، وهو الشعب، وقد ذكرناه مراراً وقلنا إنه أعظم المؤشرات التي تنبئ عنها أفعال الناس. ونقول: إن له كذلك أثراً في صفات الجماعات، فالجماعة المؤلفة من أفراد أيًّا كانوا وهم إنكليز تختلف كثيراً مع الجماعة التي تتألف من أفراد أيًّا كانوا، وهم خليط من الروس والفرنساويين والإسبانيين مثلًا.

أشد مظاهر الاختلاف الناشئ عن الوراثة العقلية في كيفية الشعور والنظر في الأمور يعرض فجأة متى اجتمع أفراد مختلفو الجنسية لسبب من الأسباب — وذلك نادر — كييفما احدثت في الظاهر المنافع التي اجتمعوا لأجلها. حاول الاشتراكيون عقد مؤتمرات تضم نواباً عن جميع العمال في كل أمة، فأدى ذلك دائمًا إلى خلف عنيف، والجماعة الالاتينية تطلب على الدوام معاونة الحكومة على ما تريد، تستوي في ذلك الجماعة الثورية الصرفة والجماعة المحافظة المضرة، فهي تمثل بطبعها إلى حصر السلطة وجمعها في يد واحدة وإلى من يجمع تلك السلطة في يده، وأما الجماعة الإنكليزية أو الأمريكية فإنها لا تعرف الحكومة ولا تستعين إلا بهمة الأفراد الذاتية، أول ما تهتم له الجماعة الفرنساوية المساواة، وأول ما تهتم له الجماعة الإنكليزية الحرية الشخصية. وبقدر اختلاف الشعوب تختلف المذاهب الاشتراكية والديمقراطية.

وعليه تحكم روح الشعب دائمًا روح الجماعة، فهي لها كالدائرة المنيعة التي تنظم تقلباتها وتحدد حركاتها، ومن هنا ينبغي أن نقرر القاعدة الآتية: تكون الصفات المنحطة في الجماعة ضعيفة بقدر ما تكون روح الشعب قوية، فحالة الجماعة هي الهمجية وتسلطها رجوع الهمجية، ولا يخرج الشعب من الهمجية ويتخلص من سلطة الجماعات التي لا يحكمها العقل إلا إذا كانت له روح قوية شديدة، وذلك يتأتى بالتدريج.

ويلي الجماعات المتقدمة الجماعات التي لا اسم لها كجماعات الشوارع، ثم الجماعات التي لها اسم، تُعرف به، كجماعات الدول وال المجالس الثنائية، والذي يوجب اختلاف هذين النوعين غالباً في انفعالهما هو أن الأولى لا تشعر بتبعة ما نتج عن أعمالها بخلاف الثانية، فإنها تقدر تبعة عملها كما ينبغي.

(٢) القسم الثاني: الجماعات المؤلفة العناصر

تفترق الجماعات المؤلفة العناصر إلى أفناء وطوائف وطبقات، فالأفنة أول المراتب، وهي تتتألف من أفراد مختلفين في التربية والحرفه والبيئة أحياناً ولا جامعة تجمعهم إلا وحدة الاعتقاد، ومن هذا النوع الأفنة السياسية والأفنة الدينية.

والطوائف أرقاها، وهي تتتألف من أفراد متحددين في الحرفة، فهم متشابهون في التربية والبيئة كجماعة الجندي وجماعة الرؤساء الروحانيين.

والطبقات هي التي أفرادها من مناشئ مختلفة اجتمعوا لا بجامعة الاعتقاد كالأفنة ولا بجامعة وحدة الحرفة كالطوائف، بل بجامعة المنافع والشبه في حالة المعيشة والتربية كطبقة الأوسط في الأمة وطبقة الزراع ... وهكذا.

ولما كان بحثي في هذا الكتاب قاصراً على الجماعات المختلفة العناصر، ومن نتني أن أفرد للكلام على الجماعات المؤلفة العناصر كتاباً خاصاً، فلا أطيل في بيان صفات هذه الأخيرة وأختتم الكلام على الأولى بذكر بعض أنواعها مثلاً للبقية.

الفصل الثاني

الجماعات الجارمة

بعد أن يمضي زمن على الجماعة وهي في هياج تعترها حالة هبوط تجعلها آلة صماء غير شاعرة يحركها الإلقاء في نفسها، ولذلك يتذرع تأثيمها فلسفياً كيما كان الحال، وإنما جريت في الكلام على استعمال هذا الوصف غير الصحيح لأنني أقرأه في بعض كتب علماء النفس الحديثة. نعم إن بعض أعمال الجماعات تعتبر جرائم من حيث هي لكن كما يعتبر عمل النمر الذي يلتهم الهندي بعد أن يكون قد تركه لصغاره يفرون بتمزيقه.

تصدر الجرائم عن الجماعة غالباً بسبب تحريض قوي ويعتقد الذين ارتكبواها من أفرادها أنهم قاموا بواجب كان مفروضاً عليهم، وهذا ليس شأن الجنابة في الأحوال الاعتيادية، وتاريخ جرائم الجماعات يوضح ذلك بأجل بياني.

فمن أمثلة ذلك قتل موسيو (لوني) مدير سجن (الباستيل)، وواقعة الحال أنه بعد استيلاء الثائرين على هذا الحصن أحاطت الجماعة الثائرة بالمدير المشار إليه وصارت الضربات تتتساقط عليه من كل جانب، وهذا يشير بشنقه وذلك بضرب عنقه وثالث بربطه في ذيل فرس ... وهكذا. وبينما هو يدافع عن نفسه فرطت منه رفسة أصابت واحداً من الجماعة، إذ ذاك اقترح أحدهم أن يقطع المضروب رأس الضارب، فهلال الجمع بالموافقة. قال راوي الواقعية: «وكان المضروب طباخاً خالياً من العمل ويقرب من أن يكون بلهولاً ذهب إلى (الباستيل) لينظر ماذا يجري هناك. فلما سمع الإجماع ظن أن الفعل مما تقضي به الوطنية، وأنه ينال وساماً إذا أعدم ذلك الوحش. ثم ناولوه سيفاً ضرب به عنق المدير، وكان غير مشحون فلم يقطع، فألقاه وأخرج من جيبيه سكيناً صغيرة ذات مقبض أسود واستعن بخبرته في تقطيع اللحوم، فساعدته الحظ وأتم عمله.»

ومن هذا المثال يظهر لك كيف تصدر أفعال الجماعة، فقد انقادت هنا إلى تحريض قوي بالإجماع عليه، واعتقد القاتل أنه أتى عملاً شريفاً اعتقاداً مكناًه من نفسه ذلك الإجماع، وقد يكون مثل هذا العمل آثماً بحكم القانون لكنه ليس كذلك في حكم علم النفس.

أما الصفات العامة للجماعات الجارمة فهي بعينها الصفات التي شاهدناها في غيرها، من قابلية التأثر، والتصديق والتقلب والتطرف في المشاعر طيبة كانت أو رديئة، والخلق ببعض الأخلاق الخاصة ... وغير ذلك.

وستظهر لنا هذه الصفات كلها في إحدى الجماعات التي تركت في تاريخنا أقبع ذكرى محزنة وهي جماعة شهر سبتمبر،^١ وبين هذه الجماعة وجماعة (سانت بارتلمي) شبه عظيم، وإنني أنقل شرح الواقعية عن موسیو (تاين)، فهو الذي استخلصها من المفكريات التي كتبت أيام حدوثها.

لا نعرف بالتحقيق الأمر والمحرض على تخلية السجون بقتل من فيها، وسواء كان هو (دانتون) كما هو المظنون أو غيره،^٢ فالذى يهمنا هو أنه وجد تحريض قوى تأثرت به الجماعة التي وليت المقتلة.

كانت تلك الجماعة مؤلفة من نحو ثلاثةمائة سفاك كلهم أشتات، فهي تمثل الجماعة المختلفة العناصر أكبر تمثيل إذ لم يكن فيها الغوغاء إلا نفر يسير، والباقيون من أصحاب الحوانين والصناع في كل حرفة وكل مهنة؛ من حذائين وقفاليين وحلاقين وبنائين ومستخدمين ومسايرة وغيرهم ... كلهم متاثرون بالتحريض الذي وقع عليهم، كالطاهي الذي مر ذكره، وكلهم يعتقد أنه قائم بواجب وطني، وقد قاموا بعملين، فكانوا قضاة وجладين، ولكنهم لم يروا أنفسهم من الجنابة أبداً، بل وقر في نفوسهم أنه واجب من أكبر الواجبات، وأول ما بدأوا به أن شكلوا محكمة، هنالك ظهرت بساطة روح الجماعات وبساطة عدالتها، ذلك أن المحكمة رأت عدد المتهمين كبيراً، فقررت أولاً قتل الشرفاء والقسوس والضباط وخدام الملك، وبالجملة قتل جميع الذين يعتبرون في نظر كل وطني جناة بمقتضى صناعتهم، وأن يكون القتل جملة من دون احتياج إلى حكم خاص. وأما الباقيون فيحكم عليهم بناء على سمعتهم أو شهرتهم. فلما أطمأنت نفوس الجماعة بهذا القرار انطلقت تنفذ ما حكم به القضاء، فبرزت كواطن القسوة والتتوحش اللذين شرحاها من قبل، والتتوحش يزداد فظاعة وعنفاً في المجامع، إلا أن الغرائز الهمجية لا تمنع من ظهور مشاعر تناقضها كما هو الشأن في الجماعات، ولذلك كان يوجد في تلك الجماعة من عاطفة التأثر ما يبلغ في شدته تلك القسوة الهائلة.

كان لأولئك القتاليين عطف صناع باريس ولطف شعورهم، من ذلك أن أحدهم علم أن المسوّجين لم يذوقوا الماء منذ ست وعشرين ساعة، فشرع في قتل السجان لولا شفاعة السجناء، وكانوا إذا برأت المحكمة التي أقاموها واحداً من المتهمين فرحاً وهللاوا وإنها لوا عليه يقبلونه وصفقوا تصفيقاً طويلاً، ثم انقلبوا يقتلون غيره أكاداساً. كانوا يقتلون والسرور لا يفارق محياه، يغنوون ويرقصون، ويعدون المقاعد للنساء لتشاهد وهي فرحة قتل الشرفاء. وكان لهم عدل من نوع خاص يدلك عليه أن أحد الموكلين بالقتل شكى من أن النساء لا يشاهدن القتل لبعدهن عن مكانه، وأن القليل من الناس هو الذي ينال حظ ضرب الشرفاء، فصوب الجميع شكوكاً وقرروا أن يمشي المتهمون الهوينا بين صفين من القتاليين، وأمرروا هؤلاء أن لا يضربيهم إلا بظاهر السيف حتى يطول أمد العذاب. وكان فريق يأتي بالمتهمين عراة كما ولدتهم الأمهات، ثم يمزقون أجسامهم مدى نصف ساعة كاملة، فإذا تمت للجميع مشاهدة هذا المنظر أجهزوا على المعذبين بفقرها بطونهم.

ومع ذلك كنت تشاهد الأمانة لا تزال ملازمة للقتاليين، فكانوا يظهرون من الفضائل ما ذكرناه للجماعات من قبل ويأبون أن يتناولوا شيئاً من نقود المقتولين وحليلهم، بل يقدمونها لِجنة.

وكانت بساطة التعقل التي انفردت بها روح الجماعات تظهر في أفعالهم، من ذلك أنهم لما فرغوا من قتل الألاف والمائتين أو الألف وخمسمائة العدو للأمة لاحظ بعضهم أن السجون الآخر تضم أناساً لا فائدة منهم، وأن الأولى إعدامهم، فسارت الجماعة إلى الموافقة على هذا الرأي، وكان من في السجون الآخر أناساً من الشحاذين والهمel (المتشريدين) والأولاد. فرأيت الجماعة أنه لا بد من وجود أعداء للأمة بينهم، كامرأة رجل كان قد قتل نفسها بالسم إذ قال بعضهم: «لا بد أنها متغيرة من وجودها في السجن، ولو تمكنت لوضعت النار في باريس ولا بد أن تكون قد قالت ذلك، بل قالته، إذن حق عليها الإعدام». سرى هذا القول في النفوس كالحجة الناصعة وهرولت الجماعة، فقتلت كل من كان في تلك السجون وبينهم نحو خمسين غلاماً ما بين الثانية عشرة والثامنة عشرة، وقالوا في قتلهم إنهم إذا عاشوا لا يبعد أن يصيروا من أعداء الأمة، فالواجب التخلص من شرهم.

ولما أتم القاتلون عملهم بعد أن زاولوه مدة أسبوع كامل فكروا في الراحة واعتقدوا أنهم خدموا الوطن خدمة يستحقون الجزاء من أجلها، ورغباً إلى حكومة ذلك الزمن أن تكافئهم، ومنهم من طلب وساماً.

وفي تاريخ ثورة ١٨٧١ أمثلة كثيرة كالتي قدمناها، وسنرى كثيراً غيرها ما دام سلطان الجماعات ينمو ويعظم، وسلطان الحكومة ينزو ويضعف.

هوامش

(١) هي كارثة شهيرة وقعت أيام الثورة الفرنساوية في باريس يوم ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ بتحريض رجل يقال له (مارات) على الأرجح، أصله طبيب انقلب صحافياً دموياً صرفاً، فكان يطلب إعدام مائتين وسبعين ألف نفس مدعياً أن في ذلك فداء الوطن.

(٢) هو (مارات) على ما ذكر في معاجم التاريخ كما تقدم.

الفصل الثالث

العدول المحفوفون أمام محاكم الجنائيات

لما كان لا يتيسر لنا ذِكر جميع أنواع العدول في هذا الكتاب رأينا أن نقتصر على أهمها، وهي العدول المحفوفون أمام محاكم الجنائيات، وهي أحسن مثال يُمثل به للجماعات المختلفة العناصر التي لها اسم خاص. وإذا بحثنا عن الصفات التي لها نجد قابلية التأثير، وسيادة المشاعر الغريزية، وضعف التأثير بالمعقول، والانصياع إلى القواد ... وهكذا، وسنبين أثناء بحثنا في هذه الجماعات بعض الغلطات التي يرتكبها من لم يكن خبيراً بعلم روح الجماعات لما في ذلك من الفائدة.

نجد أولاً في العدول المحفوفين من حيث القرارات التي يصدرونها مثلاً حسناً يبين أن تأثير الأذكياء الذين يوجدون في جماعتهم ضعيف؛ لما تقدم من أنه لا تأثير للعقل المستنير في رأي الجماعة إذا كان في موضوع غير فني، وأن رأي جموع من العلماء وأهل الفن في موضوع عام خارج عن علومهم وفنونهم لا يختلف كثيراً مع رأي جموع من البنائين أو البدالين في ذلك الموضوع.

كانت الحكومة قبل سنة ١٨٤٨ تعتنى في كثير من الأوقات بانتقاء العدول من المستنيرين، فتختارهم من بين المدرسين والموظفين ورجال الأدب وأمثالهم، وهي الآن ينتخبون خصوصاً من صغار الباعة وصغار المحترفين والمستخدمين. وقد اندهش الكتاب الاختصاصيون إذ دل الإحصاء على تشابه القرارات وإن اختلف تشكيل جماعة العدول، وأقر القضاة أنفسهم بهذه الحقيقة مع كونهم من أعداء هذا النظام، وإليك ما كتبه موسيو (بيراري جلاجر) أحد رؤساء محاكم الجنائيات في مذكراته: «أصبح الآن اختيار العدول في يد نواب المجالس البلدية وهم يرفضون هذا ويقبلون ذاك على حسب أميالهم السياسية وأحوال الانتخابات، وصارتأغلبية العدول من تجار أقل درجة من كانوا ينتخبوه قبل الآن. ومن مستخدمي بعض المصالح، ومع هذا لم تتغير روح

العدول ولا تزال قراراتهم كما كانت عليه؛ لأن جميع الأفكار تمتزج بجميع المهن في وظيفة القضاء، ولأن كثيراً من المنتخبين يجتهدون اجتهاد المؤمن الحديث في الإيمان، ولأن الطبقة الدنيا لا تخلو من أهل المرءات».

والذى يهمنا من هذا القول هو النتيجة لصحتها لا المقدمات لضعفها، ولا غرابة في هذا الضعف لأن المحامين والقضاة لا يعرفون في الغالب روح الجماعات ومنها العدول. والدليل على ذلك ما ذكره الرئيس المشار إليه من أن (لاشوا) وهو من أشهر المحامين أمام محاكم الجنائيات كان لا ينفك عن اختصار جميع العدول المستندين. وقد برهنت التجارب — وما كان لغيرها أن يقيم هذا البرهان — على أن ذلك العمل كان عقيماً، حتى إن النيابة والمحاماة تركتا هذه العادة في باريس، ولم تتغير القرارات كما أشار إليه موسيو «جلاجو»، فلا هي أحسن مما كانت عليه ولا هي أردا منه.

العدول كغيرهم من الجماعات يتأثرون بالمشاعر كثيراً ولا يتأثرون بالمعقول إلا قليلاً، فهم كما قال أحد المحامين «لا يثبتون أمام امرأة ترضع طفلها أو أمام صغاريتامي إذا نظروا إليهم». قال موسيو (جلاجو): «ويكفي أن تكون المرأة ظريفة لتناول عطف العدول».

العدول قساة القلوب على من يرتكب الجرائم التي يخشون هم منها، وهذه الجرائم هي التي تهم الهيئة الاجتماعية، ورحماء بمرتكبي الجرائم التي مصدرها الغيرة والحب ... وهكذا.

فقلما يقson على البنات الأمهات اللاتي يقتلن مواليدهن، ولا على البنت يخدعها الخادع وبهجرها فترميء بماء النار؛ وذلك لأن العدول يشعرون أنه لا خطر من مثل هذه الجرائم على الهيئة الاجتماعية، وأنه ما دام القانون لا يحمي البنت التي هجرها من خدعاها يكون نفع جنائيتها أكبر من ضررها؛ لأن في ذلك للخداع مزدجاً.^١

والعدول كبقية الجماعات يبهرها النفوذ. لاحظ الرئيس (جلاجو) أنهم ديمقراطيون في جمعهم شرفاء في عواطفهم؛ فالاسم، والحسب، والثروة الطائلة، والشهرة، والاستعانتة بمحام ذات الصيت، وكل شيء يتفرد به الرجل ويظهر به ... كل ذلك عدة كبيرة وسلاح قوي في يد المتهمين.

أراد بعضهم بيان الطريقة التي ينبغي استعمالها في هذا المقام، فوصف أحد محامي الإنجлиз، وكان ذا شهرة فائقة بنجاحه أمام محاكم الجنائيات، ومما قاله: أول ما يجب على المحامي الليبي الاهتمام به تعمد التأثير على شعور العدول، والإقلال من

التقرير، والاستدلال أو اختيار السهل البسيط من الأدلة العادلة، كما هو الشأن مع بقية الجماعات كان يتراجع وهو يرقب حركات العدول، وتحين مناسبة الوقت، فكان يقرأ في وجوههم أثر كل جملة وكل كلمة بما أotti من الفراسة والتجارب ليعرف ما ينبغي بعد ذلك، وكان يتفرس أولًا العدول الذين صاروا من جانبه ويخطو معهم في خطابه الخطوة الأخيرة التي تمكّنه من انجيازهم إليه، ثم يلتفت لمن يشعر منه بالانحراف عنه، ويجهّد في استكناه سبب ميله عن المتهم، وهذا أدق ما في عمل المحامي، لأن الأسباب التي تبعث الرغبة في الحكم على رجل بالعقوبة كثيرة، بقطع النظر عن كون الحكم عدلاً أم ظلماً.

ولقد تلخص فن الخطابة في هذه الأسطر على قلتها، وبان أن السبب في عدم تأثير ما حضر منها من قبل هو اضطرار الخطيب إلى تغيير الكلام طبقاً لأثره في نفوس السامعين.

وليس من الضروري أن يكسب الخطيب ميل جميع العدول، بل يكفيه اكتساب قلوب الرؤساء الذين هم قادة البقية، وبهم يتكون رأي الأغلبية. فالذى يقود العدول إنما هم نفر قليل منهم كما يقع ذلك في كل الجماعات. قال المحامي الذي مر ذكره: «عرفت بالتجربة أنه متى حان وقت إصدار القرار يكفي واحد أو اثنان من أهل العزيمة في الرأي لإقناع البقية».

فالواجب إذن إقناع هذين الاثنين أو الثلاثة باستعمال الحذق فيما يلقى في نفوسهم، وأول ما ينبغي فعله هو الاجتهد في إعجابهم؛ لأن الرجل في الجماعة إذا أعجبه المتكلم صار قريب الاقتناع وقبل بالسهولة الأدلة التي تعرض عليه كييفما كانت، فقد قرأت في بعض الكتب عن موسيو (لاشو) الحكاية الآتية: «من المعروف عنه أنه كان في مرافعاته أمام محكمة الجنائيات لا يفتر عن ملاحظة العدولين أو الثلاثة الذين كان يتفرس فيهم أنهم أصعب مراساً من البقية وأنهم أهل النفوذ فيهم، وكان يتمكن غالباً من التغلب عليهم، واتفق له مرة في الريف أنه لحظ بين العدول واحداً استعمل لإقناعه أشد وسائل الخطابة ثلاثة أربع الساعة على غير جدو، وكان جالساً في أول الصف الثاني وهو السابع حتى كاد اليأس يدرك الخطيب، وبينما لا شو مندفع في البيان والبلاغة تتدفق من فيه إذا به قطع الكلام فجأة والتفت إلى رئيس المحكمة قائلاً: «سيدي الرئيس أتسمحون فتأمرون بإسدال الستار الذي أمامنا، فإن الشمس تخدش عيني حضرة العدل السابع»، فاحمر وجه العدل السابع وتبسّم وشكّر، وقد صار من صف الدفاعة».

قام في هذه الأيام كثير من الكتاب، ومنهم الفطاحل، وشددوا النكير على نظام العدول مع أن وجودهم هو الضمان الوحيد الذي يقينا شر الخطأ الكبير الواقع من طائفة لا رقيب عليها،^٢ ومنهم من يذهب إلى وجوب حصر اختيار العدول في طبقة المستنيرين، ولكننا أقمنا الدليل على أن قراراتهم في هذه الحالة لن تختلف مع التي تصدر الآن. ومنهم من يتذرع بالخطأ الذي يقع من العدول فيذهب إلى تبديله بالقضاء، ونحن لا ندرى كيف غاب عنهم أن ذلك الخطأ الذي بالغوا في نسبته إلى العدول إنما سبّهم به القضاة، لأن المتهم لا يمثل بين يدي أولئك إلا بعد اعتباره جانباً من كثير من هؤلاء، من قاضي التحقيق ورئيس النيابة ودائرة الاتهام. ألا يرى أنه لو سُلم الحكم النهائي عليه إلى القضاة بدل العدول فاتته الفرصة الوحيدة للوصول إلى إظهار براءته. إن يخطئ فقد أخطأ القضاة من قبلهم، فالوزر على هؤلاء وحدهم في كل خطأ قضائي مفزع، كالحكم الذي صدر أخيراً على الطبيب (فلان) إذ اضطهده أحد قضاة التحقيق المعروفيين بقصر العقل، لأن شابة تكاد تكون من الباله اتهمته بأنه أسقط حملها مقابل جعل قدره ثلاثون فرنكاً، ولو لا ثورة الرأي العام وتصور العفو عنه لذاك عقب الحكم عليه لأرسـل إلى سجن الأشغال الشاقة. ظهر في هذه الحادثة أن خطأ الحكم كان فاحشاً بمقدار إجماع الناس على وضوح براءة المحكوم عليه، وكان القضاة أنفسهم مقتعين بذلك، لكن تحزبـهم لطائفـتهم دفعـهم إلى استـنفاد كل وسـيلة ليـمنعـوا العـفوـ عنـ ذلكـ البرـيءـ،ـ والـحاـصلـ أـنهـ متـىـ كـانـ الدـعـوـيـ ذاتـ أحـوالـ خـصـوصـيـةـ فـنـيـةـ لـاـ يـدـرـكـهاـ العـدـولـ تـرىـ هـؤـلـاءـ مـضـطـرـيـنـ إـلـىـ الأـخـذـ بـأـقـوـالـ الـنـيـاـبـةـ الـعـمـومـيـةـ لـاعـقـادـهـمـ أـنـ الـذـيـ حـقـقـ الـتـهـمـةـ قـضاـةـ لـهـمـ خـبـرـةـ تـامـةـ بـمـثـلـ هـذـهـ الـمـسـائـلـ.ـ وـلـيـتـ شـعـريـ مـنـ يـكـونـ المـخـطـئـ الـحـقـيقـيـ حـيـنـئـ:ـ الـعـدـولـ أـمـ الـقـضاـةـ.ـ يـجـبـ أـنـ نـحـرـصـ عـلـىـ الـعـدـولـ حـرـصـنـاـ عـلـىـ النـفـيـسـ،ـ فـرـبـماـ كـانـواـ هـمـ الـجـمـاعـةـ الـتـيـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـقـوـمـ الفـرـدـ مـقـامـهـ،ـ وـهـمـ الـذـيـ يـتـيـسـرـ وـحـدـهـ أـنـ يـخـفـفـوـ مـنـ شـدـةـ الـقـانـونـ،ـ فـهـوـ بـمـقـتضـيـ كـوـنـهـ وـاحـداـ لـجـمـيعـ النـاسـ أـعـمـىـ يـضـعـ الـقـوـاعـدـ مـطـلـقـةـ وـلـاـ يـعـرـفـ الشـوـانـ.ـ أـمـاـ الـقـضاـةـ فـلـاـ تـدـخـلـ الشـفـقـةـ عـلـيـهـمـ مـنـ بـابـ،ـ وـلـاـ يـعـرـفـونـ إـلـاـ النـصـ وـهـمـ قـسـاءـ بـمـقـتضـيـ صـنـاعـتـهـمـ.ـ فـلـاـ يـفـرـقـونـ فـيـ الـحـكـمـ بـيـنـ وـغـدـ ثـقـيلـ الـنـفـسـ الـمـجـرـمـةـ وـفـتـاةـ هـجـرـهـاـ مـنـ غـواـهـاـ وـعـضـهـاـ الـفـقـرـ فـوارـتـ مـولـودـهـاـ.ـ لـكـنـ الـعـدـولـ يـشـعـرونـ بـفـطـرـتـهـمـ أـنـ تـلـكـ الـفـتـاةـ الـتـيـ خـدـعـتـ أـقـلـ إـجـرـاماـ مـنـ الـذـيـ خـدـعـهـاـ وـلـاـ سـلـطـانـ لـلـقـانـونـ عـلـيـهـ،ـ وـأـنـهـ جـيـرـةـ بـكـلـ عـاطـفـ وـحـنـانـ.

لقد عرفت حقيقة روح الطوائف كما عرفت روح الجماعات الأخرى، ولكنني لم أوفق إلى معرفة حالة أكون متهمـاـ فيهاـ بـجـرمـ،ـ وأـفـضـلـ الـقـضاـةـ عـلـىـ الـعـدـولـ ليـحـكـمـواـ

فيها؛ لأن بعض الأمل في البراءة أمام هؤلاء، والأمل ضعيف أمام أولئك. حذار من سطوة الجماعات وحذار ثم حذار من سطوة بعض الطوائف، فقد تلين الأولى ولكن الثانية لا تلين أبداً.

هوماش

(١) مما تجب ملاحظته أن هذا الفرق الذي جاء به العدول — لا عن قصد — بين الجرائم المضرة بالهيئة والتي لا تکاد تضرها لا يخلو من صواب؛ إذ يجب أن يكون الغرض من القوانين الجنائية حماية الهيئة من المجرمين المضرين بها لا الانتقام لها مطلقاً. غير أن الغالب على واضعي قوانيننا وعلى قضايانا هي فكرة الانتقام التي كانت سائدة في زمن الشرائع القديمة. ودليلنا على هذا الميل في قضايانا أن الكثير منهم لا يزال يأبى العمل بقانون (بيرانجي) الذي يبيح إيقاف التنفيذ، فلا يقضى المحكوم عليه عقوبته إلا إذا عاد فأجرم، مع أن جميع القضاة يعلمون جيداً أن تنفيذ العقوبة الأولى يجره حتماً إلى العود كما يؤيد ذلك الإحصاء. (لعل ذلك مبالغ فيه) وكأنني بالقضاة يعتقدون أنهم إذا أفلتوا محكوماً عليه لا يكونون قد انتقموا للأمة، فهم يفضلون خلق مجرم يتعدى الإجرام على عدم الانتقام.

(٢) المحاكم عندنا هي المصلحة الوحيدة التي تکاد تكون لا مراقبة على أعمالها، ومع ما أنته الأمة الفرنساوية من الثورات لا يوجد فيها حتى الآن قانون مثل قانون (الإفراج) الذي تفتخر به الأمة الإنكليزية. نحن قد نفينا جميع الظالمين، ولكن أقمنا في كل مدينة قاضياً يتصرف في شرف أهل الوطن وحربيتهم كما يشاء. قويضي تحقيق خرج حديثاً من مدرسة الحقوق وله القدرة المنفرة على سجن أعلى الوطنيين منزلةً كما يريد مجرد الشبهة منه في إجرامهم. وليس من يحاسبه على عمله. وله القدرة على إبقاءهم في سجنهم ستة أشهر، بل سنة بحجة التحقيق، ثم يخلي في سبيلهم ولا ضمان لهم عليه، ولا يكفل لهم باعتدال، يفعل ذلك بمقتضى (أمر القبض)، وهو مساوٍ (لخطاب السجن) الذي عرفه آباؤنا الأولون، غير أن هذا الأخير كان لا يجوز استعماله إلا للعظاماء من الأكابر، وأما الأول فهو اليوم في يد طبقة من الوطنيين هم بعيدون جداً عن أن يكون الأكثر تهذيباً والأكبر استقلالاً.

الفصل الرابع

جماعات الانتخاب

من الجماعات المختلفة العناصر جماعات الانتخاب، أعني الماجموع التي تنتخب القائمين ببعض وظائف معينة. ولا كان عملها مقصورةً في دائرة محدودة وهو اختيار واحد من بين أفراد معينين، لا يظهر فيها إلا بعض الصفات التي تقدم بيانها. فالذى يشاهد عندها ضعف القدرة على التعقل، وفقدان ملحة النقد، وسرعة الغضب، والتصديق، والسذاجة، ويرى في قراراتها أثر القواد وأثر العوامل التي مر ذكرها، أي التوكيد، والتكرار، والنفوذ، والعدوى.

فلنبحث في طريقة إقناعها لأنّا إذا عرفنا أنفع الوسائل في ذلك وضحت لنا روحها تمام الوضوح.

أول صفة يجب أن تكون للمترشح هي النفوذ، ولا يقوم مقام النفوذ الذاتي إذا فقد إلا النفوذ المكتسب من الثروة، حتى إن الذكاء الفائق بل النبوغ ليسا من الوسائل التي تؤدي إلى النجاح كثيراً في هذا الباب.

ولا غنى للمترشح عن النفوذ لأنّه العدة الكبرى التي تمكّنه من التسلط على النفوس بدون أن يتّناظر فيه، والسبب في كون العملة والصناعة لا ينتخبون من ينوب عنهم من صفوفهم هو أنه لا نفوذ عندهم لمن خرج من بينهم، وإذا اختاروا في النادر واحداً من طبقتهم، فإنما ذلك لكي يضرروا به أحد العظاماء كمعلم كبير الشأن ومن لهم سطوة على الناخب دائمًا، فينزع هذا إلى مخالفته متخيلاً أنه يصير بذلك سيداً عليه لحظة من الزمان.

إلا أن النفوذ وحده لا يضمن النجاح لصاحب في الانتخاب؛ لأن الناخب يجب أن يتملق ويمني بنيل ما يصبوا إليه من الرغبات، فينبغي أن يساق إليه من التملق ما يعجزه حمله، وأن لا يحجم عن التكفل له بما يخرج عن حد المعقول من الوعود

والآمني، فإن كان عاملاً فكل ذم في معلمه قليل. أما المترشح المزاحم فإنه يجب أن يدخل إليه من طريق التوكيد والتكرار والعدوى لإثبات أنه أحسن الناس وأنه مجرم أثام. ومن البديهي أنه لا محل لإقامة دليل ما على ذلك، فإن كان الخصم لا يعرف روح الجماعات مال إلى تبرئة نفسه بالحججة والبرهان بدل أن يقابل التوكيد بالتوكييد، ومن ثم يفقد كل أمل في النجاح.

أما البرنامج الذي يحرره المترشح ببيان ما ينوي من الأعمال فينبغي أن لا يكون صريحاً حتى لا يتخدذه خصومه حجة عليه، لكن يجب أن يطيل في البرنامج الشفهي ما استطاع، ولا خوف عليه من الوعد بإجراء أعظم الإصلاحات؛ فإن ذلك يؤثر حالاً في نفوس الناخرين، وهو في حل منه آجلًا؛ إذ القاعدة المطردة أن الناخب لا يبحث أبداً في هل المنتدب جرى طبقاً لتصريحاته التي كانت السبب في انتخابه.

ومن هنا يتبين أن جميع عوامل الإقناع التي تقدم ذكرها هي في جماعات الانتخاب. بقى علينا أن نذكر الألفاظ والجمل مما بينا تأثيره السحري في النفوس. الخطيب الذي يعرف كيف يتصرف بها يمكنه أن يوجه الجماعة حيث يشاء، فلمثل (رأس المال الدنس) و(أولئك المحatalين الأذنياء) و(العامل الجليل) و(جعل الأموال شائعة بين الجميع) ... وهكذا، مثل هذه الألفاظ تأثير لا يزال كبيراً، وإن كان الناس قد صاروا يمحونها، فإذا كان المنتدب من أسعدهم الحظ ووفق لإيجاد صنعة جديدة خالية من المعنى المحدود لتصيب بذلك أهواء النفوس المختلفة، كان نجاحه باهراً وفوزه محتماً. والذي أوقد نار الثورة الدموية في إسبانيا سنة ١٨٧٣ إنما هو لفظ من تلك الألفاظ السحرية ذات المعاني الضطربة التي يفهم منها كل واحد حسب ما يشتته. ولقد يحسن بنا إيراد كيف كان ذلك نقاً عن أحد كتاب ذاك الحين، قال: «ظن المتطرفون أن الجمهورية الجامحة للسلطة عبارة عن ملوكيّة خفية، فأرضاهم مجلس الأمة وقرر بالإجماع أن تكون الجمهورية اتحادية من غير أن يعرف أحدهم معنى ما أقر عليه؛ لأن الصناعة كانت قد أخذت بلب الناس أجمعين، فسکروا بخمرتها، وغالوا في طلواتها، وقالوا: لقد قامت في الأرض مملكة الفضيلة والسعادة». وكان الجمهور يرى من المسبة العظيمة أن خصمه لا يعترف له بنعت (الاتحادي)، وكان بعض الناس يسلم على بعض بقوله: (سلام على الجمهوري الاتحادي). أما المعنى الذي كان يحضرهم من هذه التسمية، فمنهم من كان يذهب إلى أنه عبارة عن إطلاق الأقاليم من كل قيد ليحكموا أنفسهم باستقلال، ومنهم من كان يظن أن النظام الجديد يشبه نظام الولايات المتحدة

في أمريكا، وأخرون يرون أنه توزيع السلطة وتجزئه طريقة الحكم في البلاد، والبعض كان يفهم أن كل سلطة قد بادت، وأن الوقت حان لتصفية حساب الهيئة الاجتماعية. ونادي الاشتراكيون في برشلونة وفي الأندلس باستقلال كل قرية بنفسها، وذهبوا إلى وجوب انتخاب عشرة آلاف نائب عن جميع البلاد الإسبانية، كلهم أحرار لا يحكمهم غير أنفسهم، وقالوا بإلغاء الجيش والشرطة، ولم يمض إلا قليل حتى أخذت الثورة تمتد في الأقاليم الجنوبية من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى أخرى، فكانت كل بلدة فرغت من إعلان استقلالها تعمد إلى تخريب الأسلام البرقية والسكك الحديدية لقطع المواصلة بينها وجيانها ومدربيها، ولم تبق نزلة حقيقة إلا نزعت إلى الاستقلال بنفسها، وحل محل الاتحاد تمزق في الأقاليم علامته التوحش والنار والدماء، فأقيمت المذابح في كل صقع ونادٍ.

أما تأثير المعقول في جماعات الانتخاب فلا يجهل ضعفه إلا الذين لم يطلعوا مرة على ما يجري في المجتمعات الانتخابيات؛ لأنها لا تحتوي على شيء غير تناول التوكيدات المتناقضة والشتائم والمخاذي، ولكنها مجرد عن كل حجة وبرهان. وإذا اتفق وساد السكون لحظة فذلك لأن أحد الحاضرين من لا يقتنعون بالسهولة خرج وسط الجمع ليلاقي على المترشح سؤلاً يعجزه الجواب عنه، وذلك يلذ دائمًا للسامعين، إلا أن هذه اللذة لا تدوم طويلاً لأن صوت السائل لا يلبث أن يغيب في صخب المعارضين. وإنني ناقل للقراء عن الجرائد اليومية شيئاً مما يجري في المجتمعات العمومية ليكون مثلاً على ما تقدم: (أقام بعضهم اجتماعاً وطلب من الحاضرين انتخاب الرئيس، فقادت القيامة وأسرع الفوضويون إلى محل اللجنة ليستولوا عليه ووقف في وجههم الاشتراكيون، فتلامن الفريقان وانهالت الشتائم من مشاء وبائع ذمته وهكذا، وخرج أحد الحاضرين وعيته مورمة، وانتهى الحال ببقاء اللجنة في مكانها وسط الهياج والاصطدام، وتمت الرئاسة للوطني فلان، وأخذ الاشتراكيون يقطعنون عليه الكلام وهو يحمل عليهم حملة منكرة، فقابلوه بالوغد، قاطع الطريق، الدنيء ... وهكذا من النعوت، فقابل الخطيب ذلك بنظرية مقتضاها أن الاشتراكيين من البليه أو النصابين).

وهذا مثل آخر: (نظم الحزب المنحاز لألمانيا مساء أمس في قاعة التجارة بشارع كذا اجتماعاً كبيراً استعداداً لعيد عمال أول شهر مايو، وتقرر أن يكون الهدوء سائداً والسكن شاملاً، وقد طعن الوطني فلان على الاشتراكيين بأنهم أوغاد نصابون، وعليه تشاتم الخطباء والحضار وانتقلوا من المشاتمة إلى الملاكتة، فاشتركت الكراسى والموائد في الخصم ... إلخ).

ولا يحسن القراء أن هذا النوع من الخطابة خاص بفريق من الناخبين، وأنه آت من درجتهم الاجتماعية، بل تلك صورة تتصف بها الماناظرة في كل جمعية أياً كانت حتى التي تتالف من مستنيرين. وقد بيّنت أن الأفراد في الجماعات يتقاربون إلى حد التساوي في ملوك العقل، ونحن نجد الدليل على ذلك في كل مكان. إليك ما دار في اجتماع كان الحاضرون فيه كلهم من الطلبة نقلًا عن جريدة الطان الصادرة في ١٣ فبراير سنة ١٨٩٥: «كلما أوغل الليل ازداد الهياج، ولا أظن أن خطيباً واحداً لفظ جملتين من دون أن يقطع الكلام عليه، إذ الصراخ كان يعلو في كل لحظة تارة هنا وتارة هناك وأونه من جميع الجهات، هؤلاء يصفقون وأولئك يصفرن، وكانت المناقشات الشديدة تتحدم بين السامعين، فترى العصي تهدد الرءوس، والضرب على الموائد كالنفحة، والاصطخاب مقدوفاً إلى المشوشين، هذا يقول: آخر جهوده، وذلك يصبح: إلى منبر الخطابة، ثم قام موسيو فلان وجعل يخاطب الحضور بقوله: هذا اجتماع ما أشد قبحه وجبنه، هذا اجتماع وحشي، دنيء، رذيل متغصب، ثم أعلن أنه سيهدمه ... إلخ.»

هنا يرد على الخاطر كيف يتمكن الناخب من تكوين رأيه وسط هذه الموضوعات، غير أن هذا الخاطر يؤذن بأن صاحبه يجهل تمام الجهل مقدار الحرية التي توجد في الماجامع، وأن آراء الجماعات إنما تأتيها من طريق التسلط عليها لا من طريق الإقناع، والذي يكون الآراء ويجري الانتخاب في الحالة التي تبحث فيها هي للجان، واللجان يقودها في الغالب بائعوا النبيذ لما لهم من السيطرة على العمال بواسطة تسامحهم معهم في تأجيل ثمن ما يشربون. قال موسيو (شيرر) وهو من أكبر أنصار الديمقراطية في الوقت الحاضر: «أتعرفون ما هي لجنة الانتخاب، إنها عبارة عن مفتاح نظامتنا، وأهم قطعة من الآلة السياسية عندنا أن الذي يحكم فرنسا الآن هو اللجان». ^١ لذلك ليس من الصعب جدًا التسلط على اللجان إذا كان المرشح مقبولاً وذا يسار يفي بما يحتاج إليه في مثل ذلك. فثلاثة ملايين فرنك كفت باعتراف المتربيين أنفسهم لانتخاب القائد (بولونجييه) في مقاطعات عدة.

تلك روح جماعات الانتخاب مثلها مثل روح بقية الجماعات لا أحسن ولا أرداً. وعليه فإني لا أستخلص مما تقدم نتيجة ضد الانتخاب العام، ولو أن الأمر بيدي لأبقيته كما هو لأسباب عملية تتنزع من بحثنا في روح الاجتماع، فلنذكرها: لا يسع أحداً إنكار مضار الانتخاب العام لأنها واضحة كالشمس، فلا يماري في أن المدنية عمل طائفة صغيرة من أهل العقول الراقية شبيهة بقمة هرم تتسع طبقاته كلما

انحطت الدرجة العقلية. وتلك الطبقات تمثل الطبقات البعيدة للأمة، وعظامة المدنية لا تتوقف طبعاً على رأي العناصر الوضيعة التي ليس لها من القيمة إلا كثرة العدد، ومن الحق أيضاً أن آراء الجماعات خطرة في غالب الأحيان، فقد كلفتنا حتى الآن غارات كثيرة على بلادنا، وإذا تم لها ما تعدد من فوز الاشتراكية فمن المظنون أن أهواء سيادة الأمة تكلفنا أضعاف ذلك أيضاً.

إلا أن هذه المطاعن القوية نظراً لفقد قوتها تماماً من الجهة العملية إذا فكرنا في قوة الآراء التي لا تغالب متى صارت عقيدة من العقائد، وعقيدة سيادة الجماعات لا تختلف من الجهة النظرية مع العقائد الدينية التي وجدت في القرون الوسطى من حيث الضعف في كلٍّ. غير أن ما كان لهذه من القوة في ذلك الزمان هو للأولى في هذه الأيام، فهي منيعة حينئذ كما كانت أفكارنا في تلك القرون. لنفرض أن رجلاً من أهل الأفكار الحرة أي المطلقة السراح وجد في القرون الوسطى، أتظن أنه كان يتحرك مقاومة الأفكار الدينية المتمكنة في القوم بعد أن يرى ما لها من السيادة المطلقة، أو كان يفكر في إنكار وجود الشيطان وحرمة يوم السبت إذا مثلَ أمام قاضٍ يريد إحرقه بالنار بتهمة أنه حازب الشيطان أو ذهب إلى المعبد يوم السبت. إنه لا مناقشة مع الجماعات كما أنه لا جدال مع العواصف، ولعقيدة الاقتراض العام في أيامنا من القوة ما كان للعقائد الدينية في ذلك الزمان، فترى الخطباء والكتاب يذكرون مقروناً بالتجلة والاحترام مصحوباً بملق لم يعرفه لويس الرابع عشر. وجب إذن أن يسار معه كما يسار مع العقائد الدينية، وللزمان أن يفعل في الجميع فعله على أنه لا فائدة من التحفيز لزعزة هذه العقيدة مع وجود ما يؤيدتها في الظاهر، ولقد أصاب موسيني (توكيل) حيث قال: (ليس لأحد في زمن المساواة اعتقاد في أحد، لما بين الكل من التشابه، غير أن هذا التشابه يجعلهم يتقنون تمام الثقة بحكم الجمهور لأنهم لا يتتصورون أن الحقيقة لا تكون من جانب العدد الأكبر، وفيه ذلك الجم الغفير من المستيرين).

قد يذهب بعضهم إلى أن حالة انتخابات الجماعات تتحسن بقصر حق الانتخاب على أهل الكفاءات، أما أنا فلا أسلم بذلك لحظة واحدة؛ للسبب الذي قدمته وهو انحطاط درجة الجماعات العقلية على اختلافها كيما كان تركيبها، فإن الناس يتتساون في الجماعة دائمًا، وليس رأي الأربعين عضواً الذين تركب منهم جمعية المعرف في مسألة أحسن من رأي أربعين سقاء. ولا أظن أن رأياً أقره الاقتراض العام وشدد النكير عليه من أجله كإعادة الإمبراطورية كان يتغير لو أن المقتربين كانوا كلهم من أهل الأدب

والعلماء؛ لأن الذي يجعل الرجل ذا بصر بالأحوال الاجتماعية ليس كونه يعرف اللغة اليونانية أو الرياضيات أو كونه معمارياً أو طبيباً بيطرياً أو طبيباً أو محامياً. انظر إلى علماء الاقتصاد عندنا ترهم كلهم من المستنيرين، وأغلبهم مدرسوون أو أعضاء في جمعية المعارف، ومع ذلك لم يتحدوا على مسألة عامة أبداً كحماية التجارة أو توحيد معدن النقود ... وهكذا. ذلك لأن علمهم ليس إلا صورة مخففة من الجهل العام، وكل جهل يستوي أمام المسائل الاجتماعية التي لا حصر للمجهول فيها.

وعلى ذلك إذا قصرنا الانتخاب على قوم أفعموا علماً لا نصل إلى نتيجة أحسن مما لو تركناه في يد أهل زماننا؛ لأن أولئك العلماء يعملون على الأخص بحسب مشاعرهم ومنافع طائفتهم، فلا تكون قد دللتنا شيئاً من العقبات التي أمامنا، بل تكون قد زدنا عليها بدخولنا تحت نير الاستبداد الذي تنفرد به الطوائف.

نتيجة انتخاب الجماعات واحدة، وهو إنما يترجم عن الرغائب والاحتاجات التي للشعب بمقتضى فطرته سواء كان الانتخاب عاماً أو محصوراً في طبقة أو طبقات في جمهورية أو ملكية في فرنسا، أو في البلجيك أو اليونان أو البرتغال أو إسبانيا. ومتوسط المنتخبين في كل أمة يمثل روح شعبها، وهو لا يكاد يتغير من جيل إلى جيل. وهنا نجد مرة أخرى نظرية الشعب ذات الأهمية الكبرى. وتلك النظرية الأخرى المشتقة منها، وهي ضعف تأثير النظمات والحكومات في حياة الأمم، إنما تسير طبقاً لأرواح شعوبها. وبعبارة أخرى طبقاً: لما ورثه عن آبائهما، وهو ما تمثله تلك الروح، فالشعب هو مستودع احتياجات كل يوم، وتلك الاحتياجات هي الملوك الخفية التي بيدها زمام مآلنا.

هوماش

(١) اللجان على اختلاف مسمياتها كالنوادي والشركات هي أشد الجماعات خطراً من حيث المقدرة، فهي التي تمثل أعظم جمعية لا أثر للشخصية فيها، ولذلك كانت أقسى الجماعات يداً وأكبرها تسلطاً، فلا يشعر القواد الذين يتكلمون بلسان اللجان أن هناك تبعية ترجع إليهم، فهم يضربون في كل صوب آمنين، وما كان يخطر على بال أشد المستبددين عسفاً أن يأمر بمثل ما أمرت به اللجان الثورية التي فرقت شمال رجال (الاتفاق) وحصدتهم حصداً كما قال (باراس). ظل (روبيسيير) قابضاً على الحكم كله بيده طول الزمن الذي كان ينطق فيه باسم اللجان، فلما اختلف معها بسبب التشدد

في الرأي وانفصل عنها أدركته الدهنية. أجل إن حكم الجماعات هو حكم اللجان، يعني حكم القواد، ولن يهتدي الإنسان إلى حكم أشد وأقسى.

الفصل الخامس

المجالس النيابية

المجالس النيابية جماعات مختلفة العناصر غير اسمية، وهي تتشابه كثيراً في صفاتها وإن اختلفت طريقة تكوينها بحسب الأمم والأزمان، ولروح الشعب فيها أثر هو إضعاف تلك الصفات أو تقويتها، إلا أنه لا يمنع من ظهورها البتة. وتتشابه المجالس النيابية في البلاد المختلفة كاليونان وإيطاليا والبرتغال وإسبانيا وفرنسا وأمريكا من حيث المداولات والقرارات تشابهاً عظيماً، فتشابه الصعوبات الناشئة عن ذلك أمام جميع الحكومات.

النظام النيابي هو أقصى ما تصبو إليه الأمم المتحضرة في العصر الحاضر؛ لأنه يعبر عن فكر سائد في الناس – وإن كان علم النفس يراه خطأ – وهو أن العدد الكبير أقدر من العدد القليل على البت في الأمور بالعقل والروية والاستقلال. والصفات المميزة للجماعات توجد في المجالس النيابية من بساطة الأفكار، وسرعة الاتفعال وقابلية التأثير برأي الغير، والغلو في المشاعر ونفوذ القواد، إلا أن لها بمقتضى تكوينها الخاص بعض صفات لا تشتراك فيها مع بقية الجماعات، وإليك بيانها:

أما بساطة الأفكار فمن أهم مميزات المجالس النيابية، فتشاهد عند جميع الأحزاب خصوصاً عند الأمم اللاتينية الميل إلى حل المسائل الاجتماعية العويصة ببساطة المبادئ النظرية وبقوانين عامة يطبقونها على جميع الأحوال. ومن الواضح أن المبادئ تختلف باختلاف الأحزاب، لكن الرجل في الجماعة يرمي دائماً إلى تقدير تلك المبادئ بأكثر من قيمتها ويذهب فيها إلى آخر ما تؤدي إليه من النتائج، لذلك كانت الأفكار التي تمثلها المجالس النيابية هي المتطرفة.

وأكمل مثال لبساطة المجالس النيابية جماعة (اليعاقبة) أيام ثورتنا الكبرى، فقد كانوا كلهم من أرباب المذاهب وكلهم من المناطقة، وكانت رءوسهم ملأى بالكليات

المقوله بالتشكيك، لذلك كان همهم تطبيق المبادئ المقررة من غير التفات لظروف الأحوال، فصح ما قيل عنهم من أنهم عبروا الثورة ولم يروها. فهم قوم اتخذوا مبادئهم مرشدًا وظنوا أنهم يتمكنون بها من خلق هيئة اجتماعية جديدة، ويرجعون بالمدنية الراقية إلى مدنية كانت للأمة قبل تطورها الحالى، كذلك كانت الوسائل التي استعملوها في تحقيق أحالمهم من أبسط الوسائل، فإذا اعترضتهم عقبة استعملوا العنف في تذليلها وكانت الروح السارية فيهم جميعاً واحدة وإن كانوا فرقاً شتى.

وأما التأثير بالرأي فقابلية المجالس النيابية له شديدة، والتأثير يأتي من قبل القواد ذوى النفوذ كما هو الشأن في الجماعات كلها، إلا أن لقابلية المجالس النيابية في هذا الباب حدوداً واضحة يجب ذكرها.

فلكل عضو رأي ثابت في المسائل المتعلقة بإقليمه لا يمكن زحزحته عنه ولا تؤثر فيه حجة أو دليل، ولو بُعث (ديموسجين) ما أمكنه أن يقنع عضواً بعدم وجوب حماية المهن التي لبعض أصحابها النفوذ الأول في الانتخابات، ذلك لأن التأثير الذي وقع عليه أولاً من الناخبين أوجد له رأياً ثابتاً، وعطل فيه ملكرة الاقتناع بما يخالفه. ولعل أحد نواب مجلس العموم الإنكليزي ومن طال عهدهم فيه كان يشير إلى تلك الأفكار التي رسمت من قبل في ذهن كل عضو حتى صارت لا تقبل التغيير ولا التعديل لتأثير ضروريات الانتخاب؛ حيث قال: «سمعت مدى خمسين عاماً قضيتها في (ويستمنستر) آلاًفاً من الخطب، فالقليل منها حملني على تغيير رأيي، ولكن لم يكن لواحدة منها أن تحملني على تغيير صوتي عند الاقتراع.»

وإذا دارت المناقشة في مسألة عامة كإسقاط الوزارة أو تقرير ضريبة جديدة ... وهكذا، تقلبت الآراء وظهر نفوذ القواد، لكنه لا يساوي ما لهم في الجماعات الاعتبادية؛ إذ لكل حزب قواد قد يعادل نفوذهن نفوذ قواد الحزب الآخر، فيصبح الأعضاء بين مؤثرين متضادين؛ ولذلك يتزددون، فيقر الواحد منهم على أمر وبعد ربع ساعة يعمل بنقيضه، لأن يقبل في القانون نصاً يهدى المبدأ الذي أقامه عليه. مثل ذلك: الإقرار على قانون يبيح لأصحاب العامل حق اختيار العمال وطردهم ثم الإقرار في الجلسة ذاتها على تعديل يجعل هذا الحق أثراً بعد عين.

وضوح مما تقدم أن لكل مجلس في كل دور أفكاراً ثابتة وأخرى غير ثابتة، ولما كان الغالب فيما يعرض عليه هو المسائل العامة، كان التردد في الآراء هو الغالب لما يجتمع في نفس كل عضو من تأثير الناخبين وتأثير القواد في المجالس.

على أن القواد هم أصحاب الكلمة في أغلب المسائل التي ليس للأعضاء فيها رأي ثابت من قبل. وضرورة أولئك القواد ظاهرة؛ لأنهم يوجدون في كل هيئة نيابية عند جميع الأمم بعنوان رؤساء الفرق، أولئك الرؤساء هم السلاطين في كل مجلس، لأن الرجل في الجماعة لا يستغني عن السيد، ومن هنا كانت قرارات المجالس النيابية لا تمثل إلا رأي عدد صغير من أعضائها.

والقليل من تأثير القواد في تلك المجالس راجع إلى فصاحتهم، وكثيره مستمد من نفوذهم، برهانه أنهم إذا فقدوا نفوذهم انعدم تأثيرهم. وهذا النفوذ شخصي لا دخل فيه للاسم والشهرة. ومن غرائب الأمثلة ما أتى به موسيو (جول سيمون) في عرض كلامه في مجلس نواب سنة ١٨٤٨ الذي كان عضواً فيه، قال:

لم يكن لويس نابليون شيئاً مذكوراً قبل أن يتم له السلطان بشهرین.
ارتقى (فكتور هيجو) منبر الخطابة فلم يتل نجاحاً، بل سمعه الناس
كما يسمعون (فيликس پيات) ولكنهم لم يصفقوا له مثله. قال لي (فولال)
عن (پيات) إنه لا يحب أفكاره ولكنه كاتب كبير وهو أكبر خطباء فرنسا،
ذلك (إدجار كينيه) على علمه وقوه مفكرته لم يكن له شأن يذكر، فإن
صيته ذاع قبل افتتاح المجلس، فلما جاء إليه تخلفت عنه شهرته.
ومجالس النيابية هي المكان الوحيد في الأرض الذي يضعف فيه نور
الذكاء الفائق، فليس هناك للفصاحة قيمة إلا ما وافق منها أحوال الزمان
والمكان، ولا اهتمام إلا بالخدم التي أدبت للأحزاب لا للوطن. وإذا كانت
المجالس النيابية قد أكترت شأن (لامارتين) سنة ١٨٤٨ و(تيير) سنة ١٨٧١
فما ذلك إلا بتأثير الضرورة الشديدة الحالة، ولهذا بعد أن زال الخطر شفي
الناس من واجب الشكران ومن الخوف معًا.

نقلتُ هذا القول للاستفادة من الحوادث الواردة فيه لا من البيان الذي اشتمل عليه لأنه يدل على علم ناقص جدًا بأحوال النفس؛ إذ الجماعة لا تكون كذلك إذا عرفت لقادتها ما قد يكون أداه من الخدم للوطن أو للأحزاب على حد سواء. والجماعة إنما تطيع قادتها موقنة بسلطان نفوذه فيها من دون أن يقترن ذلك عندها بمنفعة أو شكران.

لذلك إذا كان للقائد نفوذ كبير فتسلطه عظيم، وكلنا يعرف هذا النائب الشهير الذي كانت له الكلمة العليا عدة سنين بما أوتي من النفوذ حتى فقد مركزه على إثر بعض الحوادث المالية. كانت إشارة منه تكفي لقلب الوزارة، وقد أوضح أحد الكتاب مقدار تأثير ذلك النائب في الكلمات الآتية: إننا مدینون لموسيو فلان وحده بكوننا اشترينا التونكين بثلاثة أضعاف ما تساويه، وبكوننا لم نضع في مدغشقر إلا قدمًا متزعزعه، وبكوننا غبنا في مملكة كاملة جنوب نهر النيل، وبكوننا أضعنا ما كان لنا من النفوذ الخاص في الديار المصرية، إلا أن نظريات موسیو (فلان) قد كلفتنا من الخسائر أكثر من مصائب نابوليون الأول.^١

على أنه لا ينبغي تشديد النكير على هذا القائد وإن كان قد كلفنا كثيراً؛ لأن أكثر نفوذه جاءه من تتبع الرأي العام، ولم يكن الرأي العام إذ ذاك في المسائل الاستعمارية كما هو عليه الآن. ومن النادر أن يسبق القائد الرأي العام، والغالب أنه يسير خلفه ويتبعه في الخطأ.

للقائد في إقناع قومه وسائل غير النفوذ هي التي ذكرناها مراراً، ولا بد له في قيادتهم من أن يكون قد وقف على حقيقة الروح السارية فيهم ولو من طريق الوجдан، وعرف طريقة الكلام معهم، فينبغي له على الأخص أن يعرف ما لي بعض الألفاظ من التأثير الذي يجذب نفوس السامعين، وأن يكون على جانب من الفصاحة المخصوصة التي تقوم بالتوكيد الشديد الحالي من الدليل وبالصور الآخذة الملاحة بالحجج الناقصة، هذه فصاحة موجودة في كل مجلس من المجالس النيابية حتى البرلان الإنكليزي الذي هو أكثرها اعتدالاً.

قال الحكيم الإنكليزي (ماين): «من السهل أن نقرأ دائمًا مداولات مجلس العموم مدارها تبادل كليات ضعيفة وشخصيات حادة، فلمثل هذه الصيغ الكلية تأثير كبير في خيال أهل الديمقراطية المحضة، ومن الميسور على الدوام جعل الجماعة تقبل القضايا العامة إذا قدمت لها بألفاظ جذابة، ولو كانت من القضايا التي لم يحققها أحد، وربما كانت لا تحتمل التحقيق».

يؤخذ من ذلك أنه لا حد لتأثير «الألفاظ الجذابة» المذكورة، وكم أتينا على بيان قوة الألفاظ والجمل، وما ينبغي أن يختار منها مما يمثل صوراً مؤثرة. وإليك جملة تمثل ما تقدم اقتطفناها من خطابة أحد قواد مجالسنا: «يوم يركب السياسي الأفيف والفوضوي السفاك ظهرَ باخرة واحدة تقودهما إلى منفاهما في الأراضي الحمية، ذلك هو

اليوم الذي يتحادث فيه الرجال، ويظهر كل واحد منهم لأخيه ممثلاً إحدى صورتي نظام اجتماعي واحد».

فالصورة التي يمثلها هذا المقال واضحة، وقد شعر خصوم الخطيب كلهم أنهم مهددون بها، فهم يرون الأرضي الحمية مقرونة برأوية الباخرة التي تقودهم إليها، لأنهم من حزب أولئك السياسيين الذين يهددهم ذلك العقاب. هنالك تواهم الفزع الذي كان يدخل قلوب «المتعاهدين» إذ يسمعون (روبيسيير) يهددهم بمنجلة^٢ الإعدام فيديون له على الدوام.

من مصلحة القواد أن يأتوا بالبالغات التي لا يجوز في العقل تصورها، فمن ذلك ما أكده الخطيب الذي نقلنا عنه الصورة المتقدمة ولم يعارضه أحد معارضة تذكر من أن أرباب المصارف المالية والقوسos يواسون الذين يقتذفون قنابل الديناميت، وأن مديرى الشركات المالية الكبرى يستحقون الجزاء الذي يستحقه الفوضويون. مثل هذه التوكيدات دائمًا أثر في الجماعات، ولا يرمي الخطيب بالطرف كيما بالغ وأكد، كما أنه لا حرج عليه وإن تعسف في الطعن واشتد في الهجاء، ولا نظير لهذه الفصاحة من حيث التأثير في السامعين لأنهم إن جنحوا للمعارضة خافوا تهمة الخيانة أو الاشتراك مع الجرميين.

سادت هذه الفصاحة في المجالس النيابية في كل زمان كما قدمنا وهي تشتد في أزمنة الشدة، ومن أفيد المطالعات قراءة الخطب التي كان كبار الخطباء يقولونها في مجالس الثورة، فقد كانوا يشعرون بالحاجة إلى قطع الكلام حيناً فحياناً لتقبیح الجرم وتمدح الفضیلة، ثم تنهر الشთائم من أفواههم على الظالمين، ويقسمون أنهم إما أن يعيشوا أحرازاً وإما أن يموتو، ويقف الحاضرون يصفقون كمن بهم جنة، ثم يسكن جأشهم فيجلسون.

قد يكون القائد أحياناً ذكيّاً متعلماً، ولكن ذلك يكون مضراً به في الغالب؛ لأن الذي يميل إلى بيان ما في المسائل من أوجه التعقيد، ويقبل المناقضة والتفاهم؛ وذلك يؤدي إلى التسامح والإغضاء ويكسر كثيراً من حدة العقيدة، ووحدة العقيدة لازمة للرسل. وكان أكبر القواد في الأمم خصوصاً قواد الثورة الفرنساوية من قصار العقول جداً، وكان أكبرهم تأثيراً أشدتهم قصراً في العقل، فإن الإنسان ليدهش مما يراه من التخطيط عند مطالعة رسائل أعظمهم قدرًا وهو «روبيسيير»، ومن لم يقرأ غيرها من ترجمة حياته لا يجد ما يعلل به قوة ذلك المسيطر الجبار. قال بعضهم يصفها: «صيغة كلية

جاربة على كل لسان وشققة في الفصاحة المحفوظة من كتب التربية والتعليم على الطريقة اللاتينية اجتمعت في نفس خلوها أكثر من انحطاطها، نفس تكاد لا تعرف من وسائل الهجوم أو الدفاع إلا ما تعوده التلاميذ من قول الواحد منهم لزميه: «هل من مبارز؟» وليس هناك رأي ولا تدبير ولا شاردة عنف ممل وشدة مسئمة، فإذا فرغ القارئ من تلك المطالعة المملة شعر بالحاجة إلى قول «أف» كما كان يفعل الرجل الظريف (كاميل ديمولان).»

من المفزعات ما يناله الرجل ذو النفوذ من السلطة إذا صدق عقيدته وقصر عقله، على أنه لا بد لاستجمام ذلك في الإنسان حتى يستهين بالصعب ويعرف كيف يربى. وللجماعات شعور كالإلهام يهدىها إلى معرفة الرجل الذي أودع فيه قوة العزيمة المبنية على صدق العقيدة فتدرين لسلطتها.

إنما ينجح الخطباء في المجالس النيابية بما لهم من النفوذ لا بقوة البراهين التي يقيمونها، وأصدق شاهد على ذلك أنه إذا وقع لأحدهم ما يفقد them نفوذه فإنه يفقد معه تأثيره، أعني قدرته على إدارة الآراء كما يشاء.

وأما الخطيب المجهول الذي يذهب إلى الجلسة بعد أن يكون قد أعد خطابه ودعها بالحجج ولم يكن لديه إلا الحجج والأدلة، فلا رجاء له حتى في الإصغاء إليه. وقد وصف موسیو (ديكوب) وهو أحد النواب، ومن علماء النفس المدققين النائب الذي لا نفوذ له في السطور الآتية: «إذا استوى — الموصوف — على منبر الخطابة أخرج من محفظته أوراقاً فنشرها أمامه على الترتيب وشرع يخطب مطمئناً، وهو يفتخر في نفسه بأنه سيثبت عقيدته لتسكين روح ساميده؛ لأنه وزن أداته وحررها، وأعد شيئاً كثيراً من الإحصاءات والحجج، وأيقن أن الحق في جانبه وأن معارضه لا يثبت أمام الحقيقة الناصعة التي يأتي بها. هكذا يبدأ معتمدًا على صواب رأيه وإصراء إخوانه لاعتقاده أنهم لا يطلبون إلا السجود أمام الحق. وبينما هو يخطب إذ تأخذه الدهشة من اضطراب الحاضرين، ثم يتقرر بالوضوء الناتجة من ذلك الاضطراب، ويتسائل كيف لا يسود السكون؟ وما السبب يا ترى في هذا الانصراف العام؟ وما الذي يدور على ألسنة أولئك الذين يتحادثون فيما بينهم؟ وما السبب القوي الذي يحمل ذاك على ترك مجلسه؟ يتساءل الخطيب هكذا والحيرة تعلو جبهته، فيفرك حاجبيه ويمسك عن الكلام، ويشجعه الرئيس فيعود بصوت مرتفع، فيزيد الأعضاء في عدم الإصغاء إليه، فيجهر وبهتز، فتزداد الجلبة حواليه، ويعود لا يسمع نفسه فيمسك عن الكلام مرة

أخرى ثم يخشى أن يدعو سكوته إلى أصوات (الأقفال الأقفال)، فيرجع إلى خطابته بما فيه من قوة. وهناك تعلو الجلة ويختلط الحابل بالنابل مما لا يقدر على وصفه الواسفون.»

ومن خواص المجالس النيابية أنها إذا تحرك شعورها وارتقت في الهياج إلى درجة معلومة تصير كالجماعات العادية المختلفة العناصر سواء بسواء، فتغلو إلى النهاية في مشاعرها، وتذهب إلى أقصى مراتب الشجاعة وأآخر درجات التطرف في القسوة؛ إذ ذلك لا يصير الرجل نفسه بل يبعد عنها بعدها يحمله على تغريب ما يخالف منافعه كل المخالفة.

والذى يقرأ تاريخ الثورة الفرنساوية يدرك إلى أي حد تفقد المجالس شعورها وتخضع لما يطلب منها وإن خالف أعز المنافع لدى أفرادها. كان من أكبر الضحايا أن يتنازل الشرفاء عن امتيازاتهم، ومع ذلك فعلوه غير متذمرين ذات ليلة من ليالي «الدستورية»، وكان تنازل المتعاهدين عن تقديرهم أشخاصهم منذرًا لهم بالويل والدماء، ولكنهم فعلوا وما خشوا تقتيل بعضهم بعضاً، ولا أرهبهم اعتقاد كل واحد منهم أنه مسوق إلى الإعدام لا محالة كما يسوق هو اليوم إخوانه إليه، غير أنهما كانوا قد وصلوا إلى حالة من التهيج جعلتهم كآلات تتحرك من نفسها على ما وصفنا، فلم يعد هناك من الاعتبارات ما يقوى على صدهم عن اتباع الهوى المتمكن من صدورهم. إليك ما قاله أحدهم (بيلوفارين) مما يوضح ما ذكر: «ما كنا لنريد القرارات التي يلومنا الناس من أجلها قبل أن نصدرها بيومين اثنين بل بيوم واحد، ولكن المحتنة هي التي كانت تتمليها»، وما أصدق ما كتب.

كانت جلسات التعاقد منفردة باللاشعور كما عرفت بالهياج، قال تاين: «لقد أقرروا وشرعوا ما كانوا يجزعون له أشد الحزع ولم يكتفوا في ذلك بالحماقيات والجنونيات، بل شرعوا الآثام وقتل الأبرياء وإعدام الأصدقاء، وانضم حزب الشمال إلى حزب اليمين، وقرر معه بالإجماع وسط التصديق الشديد إرسال (دانتون) إلى المجلة، وكان رئيسه الطبيعي وموجد الثروة وقائد زمامها ومال اليمين إلى الشمال، فقرر معه بالإجماع وسط التصديق الشديد أفعض الأوامر التي أصدرتها الحكومة الثورية، وبين أصوات الإعجاب والنشوة تدفق الميل والانعطاف نحو (كولوت ديربيوا) و(كوطون) و(روبيسيير)، فجدد (المعاقدون) انتخاب أعضاء الحكومة الثورية وإبقاءها على منصة الحكم، وهي الحكومة القاتلة التي كان يبغضها السهل لجرمها ويمقتها الجبل لأنها

كانت تحصده. اصطلاح السهل مع الجبل واتفاق القليل مع الكثير ورضي الجميع بمساعدة قاتلיהם على إعدامهم، ثم في يوم ٢٢ من الشهر تقدمت رقاب تلك الحكومة إلى التقطيع، وبعد ذلك بقليل تقدمت إليه أيضًا تلك الرقاب عقب خطاب روبيسيير.» قد يكون الوصف أقتم ولكنه الحق الواقع، والصفات المتقدم ذكرها توجد في المجالس النيابية المتهيجة التي سكرت بخمر فكر من الأفكار فتصبو كالقطيع المتحرك يسوقه كل دافع، وقد وصفها على هذه الحال موسیو «سبولر» وهو شوري لا يشك أحد في صدق أفكاره الديمقراطية وصفاً دقيقاً ذكره للقراء نقاً عن (المجلة الأدبية) ويرى القارئ فيه جميع المشاعر المتطرفة التي قدمنا ذكرها، وتتمثل فيها التقلبات الشديدة التي تنتقل بها الجماعات من الضد إلى الضد من لحظة إلى أخرى. قال موسیو «سبولر»:

إن التنافر والحسد وسوء الظن ثم الثقة العميماء والأعمال التي لا نهاية لها أوردت الحزب الجمهوري حتفه، فلقد كان له من السذاجة ما لا يساويه إلا سوء ظنه المطلق، لا يدرك شرعية الأمور ولا يفقه للنظام معنى، ذعر وأعمال لا تنتهي، حالتان يستوي فيهما الريفي والطفل، فسكنونهما يضارع قلقهما ووحشيتهمما تماثل طاعتها، ذلك شأن المزاج الذي لم يرتب والتربية التي انعدمت، لا يندهشان لأمر وكل أمر يفقدهما الصواب، يرتجفان ويرهقان، وفيهما الإقدام والشجاعة، فيقتحمان النار، ويغفلان من الظل، ويجهلان العلل والمعلولات، ويسارعان إلى الفتور مسارعتهما إلى التهوس. فيهما استعداد للفزع والذهول، ويختبطان من الإفراط إلى التفريط، فلا يعرفان الوسط ولا القدر الذي ينبغي أبداً، ألين من الماء تنعكس فيهما جميع الألوان، ويتشكلان بكل الصور، أي رجاء في حكومة تؤسس فوقهما.

لكن من حسن الحظ أن جميع الصفات التي أتينا على ذكرها في المجالس النيابية لا تظهر دائمًا؛ لأن تلك المجالس لا تكون جماعات إلا في بعض الأحيان، والغالب أن كل عضو من أعضائها يحفظ ذاتيته على استقلال، ومن هنا صح لها أن تسن من القوانين الفنية ما هو حسن للغاية. نعم، إن الذي يضع هذه القوانين إنما هو احترافي واحد يحضرها في سكون مكتبه، وكل قانون أقره المجلس هو صنع فرد واحد لا صنع المجلس كله، ولكن القوانين التي وضع بهذه الكيفية هي أحسن ما

يشرع، وإنما يكون القانون ضاراً إذا أدخلت عليه في الهيئة تعديلات ردئية فجعلته من صنع الجماعة، ذلك لأن صنع الجماعة أحط درجة من عمل الفرد دائمًا وفي كل مكان. والاختصاصيون هم الذين ينجون المجالس النيابية من الوقوع في الأعمال المضرة التي لا يهذبها الاختبار، فالاختصاصي يكون عند ذلك قائداً وقتياً يؤثر في المجالس ولا تأثير للمجلس فيه.

المجالس النيابية هي أحسن الوسائل التي اهتدت إليها الأمم في حكم نفسها وبالخصوص في التخلص ما استطاعت من نير المظالم الشخصية مع ما عليه المجالس المذكورة من صعوبة الحركة. وهي على التحقيق أرقى أشكال الحكومات إن لم يكن عند الكافية، فعند الفلاسفة والمفكرين والكتاب وأهل الفنون والعلماء، وبالجملة عند كل عنصر من العناصر التي تتكون منها ذروة الحضارة في الأمم.

على أننا إذا نظرنا إليها من الجهة العملية لا نرى لها إلا ضررين كبيرين: الأول تبذير الأموال تبذيراً لا مناص منه، والثاني الترقى في تحديد الحرية الشخصية.

فأما الضرر الأول فهو نتيجة عدم تبصرة الجماعات الانتخابية، فإذا قدم أحد الأعضاء طلباً لسد حاجة اجتماعية ديمقراطية ولو في الظاهر كتقدير معاش لجميع العمالة أو زيادة مرتبات بعض خدمة الريف والمعلمين وهكذا، لا يسع الأعضاء الآخرين أن يرفضوه لخوفهم من الناخبين حتى لا يظهروا بمظهر من لا يهتم بمصالحهم ولو كانوا على يقين من أن الطلب يبهظ الميزانية ويفضي إلى تقرير ضريبة جديدة، إذن يستحيل عليهم الرفض. أما نتائج الزيادة في المصروفات فهي بعيدة ولا تأثير لها في أشخاصهم إلا قليلاً، بخلاف ما لو رفضوا الطلب، فإن النتيجة تتجلى يوم يضطرون للوقوف أمام الناخبين، وما ذلك اليوم ببعيد.

وهناك سبب قوي آخر يستلزم زيادة المصروفات وهو الاضطرار لمنح المصروفات المحلية؛ إذ لا يجرأ عضو في المجلس على رفض طلبها لكونها في منفعة الناخبين مباشرة، ولأنه لا يمكن من نيل ما يريد له رکزه إلا إذا أقر ما يطلبه زملاؤه لراكزهم.^٣

وأما الضرر الثاني وهو التدرج في تقييد الحرية الشخصية تدرجًا قهريًا كذلك فهو ضرر محقق، وإن كان أقل وضوحاً من الأول. وهو نتيجة القوانين العديدة التي لا تدرك المجالس النيابية نتائجها تماماً لبساطة أفكارها، ولكنها تحسب أنها مضطرة لتقنينها وليس القوانين إلا قيوداً.

والظاهر أنه لا مفر من هذا الخطر لأن إنكلترا نفسها لم تتمكن من انتقامه مع أن نظامها النيابي أكمل النظمات لأن النائب الإنكليزي أكبر النواب استقلالاً أمام

نأخبيه، وقد أشار (هربرت سبنسر) منذ زمن بعيد إلى أن الزيادة الظاهرية في الحرية الشخصية لا تثبت أن تتيح بنقص حقيقي فيها. ثم عاد إلى هذه النظرية في كتابه الذي سماه (الفرد والحكومة)، ومما قاله: «جرى التشريع منذ ذلك الحين على النحو الذي أشرت إليه، فما أسرع ما كثرت اللوائح القسرية وكلها ترمي إلى تحديد الحرية الشخصية، وذلك من طريقين: الأول أن كل سنة قد أربت على سابقتها في كثرة اللوائح التي تلزم الأفراد بواجبات كانوا أحراً منها، وتفرض عليهم أعمالاً كانت مباحة إن شاءوا فعلوها وإن شاءوا أهملوها. والثاني زيادة الضرائب العامة التي يجب على الأفراد القيام بها، وذلك يحرمهم من ثمرات كسبهم بقدر ما يزيد في المال الموكول صرفه إلى مشيئة الموظفين العموميين».

وهذا الترقى في تحديد الحريات يظهر في جميع البلدان بصورة واحدة لم يذكرها (هربرت سبنسر)، وهي أن أحداث تلك القوانين المقيدة ينتج حتماً زيادة عدد الموظفين المكلفين بتنفيذها، ثم هو يقوى نفوذهم، ومال أولئك الموظفين بهذه الطريقة صيرورتهم سادة البلاد المتمدنة الحقيقيين؛ لأن طائفتهم هي التي لا ينالها أثر التقليبات المستمرة التي تطأ على حكومة البلاد؛ ولذلك كانت سيطرتها شديدة على قدر ثبوت قدمها في الوظائف، فهي الطائفة الوحيدة التي لا تتبع عليها من أعمالها ولا شخصية لأحد في مجموعها، وهي باقية على الدوام، ومن المعلوم أن أشد صور الاستبداد هي التي اجتمعت فيها تلك الصفات الثلاث.

إن الاستمرار على سن هذه القوانين واللوائح المقيدة لحرية الناس والتي تحيط بكل حركة من حركاتهم وإن صغرت بسور من الإجراءات (البيزنطية) من شأنه أن يضيق دائرة العمل الذي لا قيد فيه، لكن الأمم قد خدعت في خيالها فحسبت أن الإكثار من القوانين توكيده لضمان الحرية والمساواة، وصارت تقبل كل يوم قيداً ثقيلاً. على أنها لا مهرب لها من نتيجة هذا الرضا، فإن التعود على احتمال النير كل يوم يفضي بها إلى تطلبه وفقدان ملحة الإقدام وقتل العزيمة، فتصبح حينئذ أثراً بعد عين الآلات تنفعل بحركة غيرها لا إرادة ولا صلابة ولا قوة.

وإذا فقد الإنسان المقدمات في نفسه اضطر إلى طلبها في غيره، وكلما ازداد عدم اهتمام الأفراد وضعفهم اشتدت سطوة الحكومة وقويت شوكتها بالضرورة، هنالك تضطر إلى إيداع إقدامهم على الأعمال بإقدامها والقيام مقامهم في الأخذ بيد المشروعات كلها والتدخل في تنظيم سير الأفراد دونهم لأنهم أضعوا ملحة ذلك كله، وتصبح

الحكومة مكلفة بأن تعمل كل شيء وتدبر كل شيء فتصير إلهًا قادرًا، إلا أن التجربة دلت على أن قدرة مثل هذا الإله لم تكن قوية ولم تدم إلا قليلاً. والظاهر أن الترقي في تقييد الحريات عند بعض الأمم التي تظن أنها متمتعة بها لما هي فيه من الإطلاق الصوري ناشئ من هرمتها كما ينشأ عن هرم أي نظام كان، وذلك نذير دور الانحطاط التي لم تنج منه مدينة حتى الآن.

وإذا قسنا الحاضر بالماضي ورجعنا إلى العلامات التي تبدو من كل صوب، حكمتنا بأن عدداً كبيراً من مدنياتنا الحاضرة قد وصل إلى أقصى حدود الهرم الذي هو طليعة الانحطاط، والظاهر أنه لا بد لجميع الأمم من عبور هذه السبيل؛ لأن التاريخ يروي لنا أنه دور كثيراً ما تجدد.

ولقد يسهل بيان الأدوار التي تتقلب فيها المدنيات بقول موجز، وهو الذي نريد أن نختتم به هذا الكتاب، فلعل فيه توضيحاً لأسباب قوة الجماعات. إذا سربنا المدنيات التي سبقت مدنيتنا في حاليها الرقي والانحطاط بما الذي نعثر عليه؟

نعثر في فجر هذه المدنيات على خليط من الناس مختلف الأجناس جمعتهم عفواً الهجرة والإغارات والفتورات، ولكونهم اختلفوا في المحـد وتبـينوا لـغـة وديـنـا لم يكن بينـهمـ منـ الرابـطةـ العمـومـيـةـ إـلاـ سـلـطـةـ الرـئـيـسـ عـلـىـ ضـعـفـ اـعـتـراـفـهـمـ بـهـاـ.ـ وـفـيـ تـلـكـ المـجـامـعـ المـخـتـلـطـةـ نـشـاهـدـ صـفـاتـ الجـمـاعـاتـ بـأـرـقـىـ صـورـهـاـ،ـ فـلـهـاـ مـنـهـاـ الـائـلـافـ الـوقـتـيـ،ـ وـالـشـجـاعـةـ وـالـضـعـفـ،ـ وـالـادـفـاعـ وـالـقـسوـةـ،ـ وـعـدـمـ ثـبـاتـ شـيـءـ مـنـ ذـلـكـ،ـ إـنـ هـمـ إـلـاـ قـوـمـ مـتـوـحـشـونـ.

ثم دار الزمان فأدى وظيفته، وأخذت جامعة البيئة وتكرار التناسل وحاجات المعيشة الاجتماعية تؤثر أثراً شيئاً فشيئاً، وبدأت أجزاء المجموع المختلفة تمتزج بعضها ببعض، وتكون شيئاً أثرياً تركيباً ذا صفات عامة ومشاعر مشابهة تمكناها الوراثة كل يوم. هكذا صارت الجماعة أمة وأن لهذه الأمة أن تخرج من دائرة الهمجية. على أنها لا تخرج منها إلا إذا تكون لها مقصد عام تشخص إليه، وذلك لا يتم إلا بعد مجهودات طويلة، ومغالبات متعددة على الدوام، وبدايات يخطئها الحصر. سواء كان المقصد العام الوهبية روما أو تعظيم أثينا أو نصرة الله، فهو يكفي لتوحيد أفكار أفراد الأمة وهي في دور التكوين، هنالك تتولد مدينة جديدة بما تقتضيه من النظمات والعقائد والفنون، وينجر الشعب وراء مقصده ويصل إلى ما ينيله الأبهة

والجلال والقوة والإعظام. نعم تعرض له أحوال يكون فيها جماعة، إلا أنه يكون له خلف صفاتها المتقلبة ذلك الموجود القوي، أعني روح الشعب، فهي التي تقييد تقلباته وتحددتها وتضع للمصادفات نظاماً مسنوناً.

فإذا أتم الزمان صنعه الإيجاري يبدأ بصنعه الإعدامي الذي لم ينج منه عابد ولا معبد، فتقف المدنية عند وصولها إلى حد معين من الشوكة والتشعب، ومتى وقفت أسرع إليها الانحطاط لا محالة، فقد اقتربت الشيخوخة ودنت ساعة الأجل.

علامة تلك الساعة التي لا مفر منها تكون دائماً ضعف اليقين بالمقصد الذي اتكأت عليه روح الشعب، وكلما انزوى عود هذا الخيال اندكت صروح الدين والسياسة والاجتماع التي كانت تستمد حياتها منه.

كلما انزوى خيال الشعب فقد هو علة امتراجه، وداعي وحدته، وموحد قوته، وتمت شخصية الأفراد، وعظم الذكاء فيهم، غير أن ذلك يصطحب بحلول الأثرة الشخصية المفرطة محل الأثرة القومية.

وراءه انطمس الأخلاق، وضعف القدرة على العمل، ويصبح ذلك التركيب الذي كان ي构成 أمة – أي وحدة وإن شئت فقل كتلة – جمعاً مؤلفاً من أفراد غير مؤتلفين، لا رابطة بينهم إلا الجامعة الصناعية الآتية من التقاليد والنظمات. ومتى وصل الناس إلى هذه الحال من افتراق المنافع واختلاف النزعات وعدم الاهتمام إلى طريقة يحكمون بها أنفسهم جدوا في طلب من يقودهم في جميع أعمالهم وإن صغرت، فتأتي الحكومة بسلطانها وتبتلع كل شيء.

وإذا تم فقدان الخيال تم فقدان روح الأمة، فتعود خليطاً من الناس كلُّ يعمل على شكلته، وترجع إلى ما كانت عليه في بدايتها جماعة لها منها جميع الصفات الورقية، فلا شعور، ولا أمل، هنالك تنعدم أساساتي الدينية، وتمسي هدفًا لحوادث الاتفاق، وتصير العامة سلطانة في الناس، وتبدو طلائع المتواشين، وقد يلوح على المدنية أنها باقية في بعائها لأن حياتها لا يزال يضيء بما أكسبته الأجيال الطويلة من البهجة والرواء، ولكن الحقيقة أنه بناء أكله السوس وفقد دعائمه واستعد للسقوط بأية عاصفة.

فمن همجية إلى حضارة وراء مقصد في الخيال، ومن حضارة إلى انزواء، فموت حين يضمحل الخيال، هذا مدار حياة الأمم.

هوامش

(١) لعل المؤلف يشير إلى موسسيو كليمانسو الذي سمي هدام الوزارات، ولو تأخر صدور هذا الكتاب إلى الآن لغير المؤلف رأيه في الرجل القابض اليوم على زمام السياسة الفرنساوية المتربع في رئاسة نظارتها ونظارة خارجيتها، وله في السياسة العامة مقام كبير (م).

(٢) آلة إعدام تفصل الرأس عن بقية الجسد.

(٣) ذكرت جريدة (إيكونوميست) في عددها الصادر بتاريخ ٦ أبريل سنة ١٨٩٥ بياناً غريباً للنفقات التي تتکلفها تلك المصالح المحلية في سنة واحدة، وخصوصاً السكك الحديدية، فكان كما يأتي: الخط بين (لانجاي) وسكنها (٣٠٠٠) نسمة، وهي منزوية في أحد الجبال و(پوي) خمسة عشر مليوناً. والخط بين (بومون) وسكنها (٣٥٠٠) نسمة و(كاستيل سازاران) سبعة ملايين، والخط بين (أوست) وسكنها (٥٢٣) نسمة و(سيكس) وسكنها (١٢٠٠) نسمة سبعة ملايين. والخط بين (پراد) وكفرة (أوليت) وسكنها (٧٤٧) نسمة سبعة ملايين ... وهكذا. وبلغ مجموع كلفة السكك الحديدية التي تقرر إنشاؤها في سنة ١٨٩٥ وحدها، ولم يكن لها منفعة عامة مطلقاً، تسعين مليوناً، وستبلغ مصروفات تنفيذ قانون معاشات العمال ١٦٥ مليوناً بحسب ناظر المالية أو ٨٠٠ مليون بحسب (لوروابولي) عضو جمعية العموم. ولا يخفى أن استمرار زيادة المصروفات على هذا النحو يؤدي إلى الإفلاس، وقد وصل إليه كثير من المالك في أوروبا مثل البرتغال والميونخ وإسبانيا وتركيا، ومنها ما أصبح قادماً عليه مثل إيطاليا، إلا أنه لا داعي للاهتمام كثيراً بما ذكر؛ لأن الناس قبلوا نقص الفائدة التي تدفعها تلك البلاد على ديونها بمقدار أربعة الأخماس من دون امتعاض كبير. وهي تفاليس محكمة التدبير تسمح لأممها بإصلاح ميزانياتها، على أن الحروب والاشتراكية والمزاحمات الاقتصادية تضرر لنا مصائب أشد وأنكى. وقد دخلنا في زمن التفكك والتحلل العام، فعلينا الرضا بالعيش يوماً بيوم، وأن لا نهتم بالغد لأنه ليس في ملتنا.

